

الدكتور
أمين منتصر

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

توزيع
دار الفكر العربي
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت : ٢٧٥٢٩٨٤، فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

٢٢٠,١ أمين منتصر.
أ م ع ل

العلم بما فى الأرحام/ تأليف أمين منتـصر.- القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٥م.

أ- د: ١٣٢ ص: إيض؛ ٢٤سم.

ببليوجرافية: ص ١٢٧.

تدمك: ٦ - ٠٨٠٦ -١٧- ٩٧٧

١- علم الأجنة. ٢- الإعجـاز العـلمى فى القـرآن.
٣- القرآن والعلم. ٤- أطوار خلق البشر. أ- العنوان

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

((اللَّـهُ يَعْلَـمُ مَـا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)) "سورة الرعد، الآية ٨"

((إِنَّ اللَّـهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)) "سورة لقمان، الآية ٣٤"

((وَاللَّـهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ))

"سورة فاطر، الآية ١١"

((إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ)) "سورة فصلت، الآية٤٧"

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله. ونعوذ بـــالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله. وبعد ...

فسبحانك اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. سبحانك يا من علا علمك على كل علم وعلت قدرتك على كل قدرة وسمت حكمتك على كل حكمة.

سبحانك ربنا، يا من قلت وقولــك الحــق: **﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾**(*). سبحانك يا من اشتمل علمك على معرفة خلقك ليس فقط أبـــان وجـــودهم فـــي الأرحام وإنما منذ تواجدهم في عالم الغيب إلى أن يصبحوا في عـــالم الشـــهادة. سبحانك يا من يحيط علمك بجميع أحوال خلقك قبل وجودهم في الأرحام وأثنـــاء هذا الوجود وبعد هذا الوجود وإلى أن ينعدم الوجود.

فلقد تحفز الإنسان دوماً لمعرفة جنس الجنين في الـــرحم علـــى أســـاس تفضيله الغريزي للبنين على البنات واستخدم الإنسان في ذلك وسائل وأســـاليب اختلفت باختلاف الزمان والمكان، ووضعوا لذلك علامـــات وأمـــارات معينـــة يتنبأون من خلالها بجنس الجنين ومنهم من حاول استخدام تفسير الأحلام في هذا الصدد. وفي العصر الحديث جرت محاولات جادة لكشف النقـــاب عـــن جـــنس الجنين بالرحم باستخدام كل ما توصل إليه الإنسان من علم ومعرفة. ولقد حقـــق الإنسان في ذلك قدراً كبيراً من النتائج الإيجابية.

(*) سورة لقمان، بالآية ٣٤.

واستخدم بعض أعداء الإسلام نجاح الإنسان في تحقيق هذه النتائج الإيجابية في كشف جنس الجنين ذكراً أم أنثى أداة لمهاجمة القرآن الكريم على أساس ما ورد فيه عن غيبية علم الله سبحانه وتعالى بما في الأرحام. فمن ناحية استخدم الملحدون هذا الأمر لتقوية دعوتهم إلى الإلحاد، وبالتالي التحلل من كل القيم والمبادئ الأخلاقية السامية التي أرساها الله سبحانه وتعالى لصالح البشر في دنياهم وآخرتهم وجاء ذكرها بالقرآن الكريم والسنة المطهرة. ومن ناحية أخرى استخدم بعض الحاقدين على الإسلام وأهله هذا الأمر ذريعة للهجوم على الإسلام والنيل منه بالباطل.

وعلى الرغم من الكثير من النتائج الإيجابية التي توصل إليها العلم في مجال الكشف عن جنس الجنين، إلا أن هذا لا يمس مصداقية القرآن الكريم في قليل أو كثير، إذ إن تفسير البعض للقرآن الكريم فيما يختص بالغيبية الثالثة المتعلقة بعلم الله بما في الأرحام جاء على نحو غير صحيح. أي أن الخطأ هنا في تفسير البعض للقرآن الكريم وليس في القرآن الكريم ذاته. ونتيجة لذلك أدى التفسير الخاطئ للقرآن الكريم فيما يتعلق بهذا الموضوع إلى أن استدل أعداء الإسلام بالفاسد على الصحيح متصورين أنهم قد استطاعوا أخيراً إيجاد ثغرة في صرح الإيمان، ولم يتصوروا أنهم يجرون وراء سراب يحسبه الظمآن ماء!!.

أمر غريب ويزداد هذا الأمر غرابة في أن هذا الهراء قد راج بين ضعاف الإيمان والمتفرنجين من المسلمين ومنهم أنصاف مثقفين وكتاب علمانيين. ولقد وجد كل هؤلاء هذا الادعاء بكشف الغيب فرصة ذهبية طالما حلموا بها وتمنوها وانتظروها للانقضاض على الدين الإسلامي الحنيف ... وهل يمكن لأحد قتل الإسلام؟ !!.

وحقيقة الأمر فإن ما أثير ويثار من ضجيج بين الوقت والآخر حول الغيبية المتعلقة بعلم الله بما في الأرحام ينبغي أن يكون دافعاً للدعوة المخلصة للدراسة الموضوعية للعلاقة بين الدين والعلم من ناحية. وكذا الاطلاع الجاد المخلص على التفاسير الصحيحة للقرآن الكريم ودراستها دراسة متأنية مستفيضة مستنداً في ذلك إلى السنة النبوية الشريفة وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة المتخصصين. فإذا ما حدث خطأ في التفسير بعد ذلك يكون الخطأ في الاجتهاد ولا يمس هذا مصداقية القرآن الكريم أو السنة المطهرة بحال من الأحوال.

وفي هذا المؤلف نحاول تقديم التفسير الصحيح لما جاء بالقرآن الكريم عن الغيبية المتعلقة بعلم الله بما في الأرحام. لبيان عدم التناقض بين ما توصل إليه العلم الحديث من كشف جنس الجنين ذكراً كان أم أنثى وبين ما قصده الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم وذكره رسوله محمد ﷺ في سنته المطهرة. وللرد على الشبهات والأباطيل التي سيقت في هذا المجال ولغلق الباب نهائياً أمام هذه الأباطيل.

وقد تضمن هذا الكتاب ثلاثة فصول اهتم أولها بمتابعة أطوار خلق البشر قبل وجودهم بالأرحام وأثناء وجودهم بها. كذلك احتوى هذا الفصل على بيان للخطوات العلمية التي تتبع لمحاولة الكشف عن جنس الجنين بالرحم وخارجه مع توضيح بعض الملاحظات المهمة عليها. ولقد اشتمل هذا الفصل في نهايته بتفنيد المفهوم الخاطئ لعلم الله بما في الأرحام ودراسة أسباب نشأة هذا المفهوم وموقف الإسلام من ذلك.

وتضمن الفصل الثاني دراسة المفهوم الحقيقي لعلم الله العلام بما في الأرحام وأبعاده التي لا يمكن للإنسان حصرها. وأفرد الفصل الثالث لإثبات أن العلم بجنس الجنين بالرحم، مع افتراض دقته، ليس كشفاً لعلم الله بما في

الأرحام. ولقد قدم هذا الفصل دليلاً قاطعاً من القرآن الكريم يحسم نهائياً الجدل المفتعل حول الادعاء بكشف هذا الغيب من خلال تحليل ودراسة قصة امرأة عمران ووليدتها مريم عليهما السلام.

ولقد فكرت في تأليف هذا الكتاب في شعبان عام ١٤٠٦ هـ الموافق أبريل عام ١٩٨٦م وشرعت في تأليفه في فترة لاحقة بعد ذلك انتهيت من ذلك بحمد الله وتوفيقه في رجب عام ١٤١٢هـ الموافق يناير عام ١٩٩٢. واخترت لهذا الكتاب حينئذ عنوان "تنوير الإفهام بعلم العلام بما في الأرحام" إلا أن ظروفاً خاصة بي لم تمكني من طباعته ونشره واحتفظت بمخطوطه أكثر من إحدى عشرة سنة إلى أن سمحت هذه الظروف بنشره أخيراً، إلا أنني رأيت تغيير اسمه إلى اسمه الحالي لعله يكون أكثر إيضاحاً لمحتواه العلمي. وأكثر سهولة في فهم مقصده.

والله نسأل التوفيق والسداد من لدنه. إنه سبحانه وتعالى ولي ذلك والقادر عليه.

القاهرة في: محرم ١٤٢٦هـ

الموافق مارس ٢٠٠٥م.

دكتور
أمين منتصر

الفصل الأول

أطوار خلق البشر وجنس الجنين



الفصل الأول

أطوار خلق البشر وجنس الجنين

أطوار خلق البشر:

قال الله الخالق المصور في كتابه الكريم: *(مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)*[1]. ويقصد سبحانه وتعالى بذلك دعوة عباده إلى تعظيمه حق عظمته والخشية من بأسه ونقمته إذ أنه لقادر على كل شئ فهو عز وجل الذي خلق هؤلاء العباد أطوارا diverse stages وبالتالي هو أعلم بهم وقادر عليهم. وتدل الآية الأخيرة على أن الله سبحانه وتعالى خلق عباده على مراحل وأطوار وهذه علامة على أحكام الخلقة وحسن التصوير والقدرة الإلهية التي تهيمن على الإنسان وتسيطر عليه، ليس فقط وهو في طوره النهائي كبشر وإنما في جميع أطواره ومراحله. ولبيان أطوار خلق البشر يتناول هذا الفصل أولاً دراسة أطوار خلقهم فيما قبل استقرارهم في الأرحام، على أن يعقب ذلك دراسة أطوار خلقهم في الأرحام. كذلك يتضمن هذا الفصل دراسة الخطوات العلمية في مجال تحديد جنس الجنين.

أطوار ما قبل الأرحام:

سبحان الله القائل: *(وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً)*[2]. فقد قدر القادر عز وجل أمر مخلوقاته جميعاً قبل خلقها في اللوح المحفوظ عنده. ثم قدرها في عالم الذر وذلك بأن قبض قبضة بيمينه وقال هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم قبض قبضة أخرى بيده الأخرى وكلتا يديه يمين، وقال هؤلاء للنار

---

(1) سورة نوح، الآيتان ١٣، ١٤.

(2) سورة الأحزاب، بالآية ٣٨.

وبعمـــل أهل النار يعملون. أي أن جميع شئون البشر قدرها الله سبحانه وتعالى قبل أن يخلقهم بزمن سحيق.

ولقـــد أطلع الله سبحانه وتعالى الملائكة على خبر خلقه عز وجل للبشر ليقطـــنوا الأرض، فأخبرهم في الملأ الأعلى بأن قال تعالى لهم: *(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ)*[(١)]. ويتبين من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أطلع الملائكة قبل ذلك على أحوال هؤلاء البشر أو أنه أفهمهم ذلك من خلال إحاطتهم بعلم الطبيعة البشرية فعلموا أن هؤلاء البشر من طبيعتهم الإفســاد وسفك الدماء. ونظراً لعدم إدراكهم الحكمة الإلهية من خلقهم فقد تعجبوا من ذلك. إذاً كيف يكونون خلفاء في الأرض وهم على هذه الطبيعة غير المثالية خاصــة إذ قورنـــت طبيعة البشر بطبيعتهم الملائكية التي تعبد الله الواحد القهار وتسبحه أناء الليل وأطراف النهار وتقدس جلالته وعظمته!!.

وبـــدأ الله الخـــالق المـــبدع خلـــق البشـــر من طين، وهذا ما أوضحه ســـبحانه وتعـــالى في قوله: *(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)*[(٢)]. كما قال تعالى: *(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً)* [(٣)]

ولقد خلق الله سبحانه وتعالى أبا البشر آدم عليه السلام من طين clay ثم سواه فجعله سوياً مستقيماً fashioned him in due proportion وبعد ذلك نفخ فيه الله العزيز القدير من روحه breathed into him something of his spirit فجعلـــه بشراً سوياً يسمع ويبصر ويعقل ويتضح هذا من قوله تعالى: *(ثُمَّ سَوَّاهُ*

---

(١) سورة البقرة، بالآية ٣٠.

(٢) سورة السجدة، الآية ٧.

(٣) سورة فاطر، بالآية ١١.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾[1]. ولقد كان خلق آدم عليه السلام على هذا النحو هو النشأة الأولى.

ولقد خلق الله سبحانه وتعالى ذرية آدم *Adam's heirs* من ظهره في عالم الذر. وفي ذلك روى ابن جرير الطبري أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال إن رسول الله ﷺ قال: *"وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم قال: أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس"*. وفي يوم عرفه أرى الله علام الغيوب آدم ذريته في منطقة نعمان ... أراه الله ذريته وهم لا يزالون في عالم الذر ... أراه إياهم عياناً فسبحان القاهر فوق عباده. ولما نظر آدم إلى ذريته وجد من بينهم المؤمن والكافر والعابد والجاحد. كما رأي من بينهم الطويل والقصير والأبيض والأسود. كذلك رأى آدم من بين ذريته الجميل والقبيح خَلقاً وخُلقاً.

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى ذرية آدم جميعها من ماء مهين. إذ قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾[2]. ويقصد بالسلالة quintessence of the nature من ماء مهين despised fluid أن البشر يتناسلون من نطفة تخرج من بين الصلب والترائب proceeding from between the backbone (hip- bones) and the ribs. وللنطفة ثلاثة أنواع، هي النطفة المذكرة وهي الحيوانات المنوية sperm التي يحتوي عليها مني الرجل وتفرزها خصيتاه. والنطفة المؤنثة وهي البويضة ovum التي يفرزها مبيض الأنثى بمعدل بويضة واحدة في الشهر. والنوع الثالث للنطفة هو النطفة المخصبة fertilized ovum وهي المتكونة نتيجة إخصاب الحيوان المنوي للذكر لبويضة الأنثى وتسمى النطفة الأمشاج وفي ذلك يقول الله سبحانه

---

[1] سورة السجدة، بالآية ٩.

[2] سورة السجدة، الآية ٨.

وتعالى: ***(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)***[1].

ومكان النطفة الأمشاج الرحم.

أطوار ما في الأرحام:

الرحم womb (uterine) هو العضو التناسلي للمرأة. وهو ما أسماه الله سبحانه وتعالى بالقرار المكين وذلك بقوله: ***(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ)***[2]. وتنمو النطفة الأمشاج في الرحم وتعلق فيه حتى تصير علقة، ثم تصير مضغة morsel of flesh، ثم تصير عظاما ثم عظاماً مكسوة باللحم، ثم ينشئ الله هذا الجنين خلقاً آخر حتى يولد طفلاً سوياً. وفي ذلك يقول الله تعالى: ***(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا)***[3]. كذلك قال سبحانه وتعالى: ***(فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا)***[4].

وعلى الرغم من أن مراحل خلق بني آدم في الرحم تبدأ من النطفة الذكرية والنطفة الأنثوية ovum كما يبدو، إلا أنه في الحقيقة خلق من تراب dust إذ أن التراب هو أصل النطفة ولا يرقى بها من صورتها الطينية إلا النفخة الربانية العظيمة التي ارتقت بآدم عليه السلام ليسمو بمكانته على الملائكة جميعهم. ومن ثم كان لزاماً على الملائكة أن يسجدوا لآدم كلهم أجمعين. وتتكرر هذه النفخة العظيمة مع كل جنين fetus لترقى به إلى حيث ارتقى أبوه آدم عليه

---

(1) سورة الإنسان، الآية ٢.

(2) سورة المؤمنون، الآيتان ١٢، ١٣.

(3) سورة الحج، بالآية ٥.

(4) سورة المؤمنون، بالآية ١٤.

السلام. ويتبين تكريم الله سبحانه وتعالى لبني آدم بقوله عز وجل: *﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾*(*).

أي أن الرحم هو مهد النطفة البشرية، ففيه الحماية ومنه الغذاء وبه الكساء طوال مرحلة النمو proliferative phase إلى أجل مسمى appointed term. والرحم عضو عضلي كمثري الشكل أجوف له القدرة على النمو والتحول بسرعة على نحو لا تعرفه بقية أعضاء جسم الإنسان. وبذلك يمكن له النمو بالمعدل الذي يستوعب النمو المتزايد للجنين بداخله. وللرحم قناتان على جانبيه تنتهي كل منهما بانتفاخ يعرف باسم البوق الذي له مجموعة من الأهداب تحيط بالمبيض لتتلقى منه البويضة التي يفرزها. وبالبوق شعيرات دقيقة رقيقة مبطنة لتحمل البويضة حتى تصل بها إلى قرب نهايته وهناك تظل البويضة في انتظار تلقيحها بأحد الحيوانات المنوية إذا قدر لها الله سبحانه وتعالى ذلك فإذا تم تلقيحها كانت نطفة مخلقة formed وإذا لم يتم التلقيح كانت نطفة غير مخلقة partly formed.

فإذا ما قدر الله سبحانه وتعالى الحمل fetation للأنثى هيأ ليها الأسباب. فبعد جماعها مع زوجها تنتقل الحيوانات المنوية من قضيب الزوج penis إلى مهبل الزوجة vagina وتصب عادة بالقرب من عنق الرحم. فتصعد الحيوانات المنوية بعد ذلك لتدخل الرحم، وتسير فيه متنافسة وباندفاع لتكمل مسيرتها إلى قناة الرحم باحثة عن البويضة لتلقيحها. فتلقح بأحد هذه الحيوانات الذي قدر الله القدير له ذلك. فإذا ما نجح حيوان منوي معين في تلقيح البويضة، أي اختلطت النطفة الذكرية بالنطفة الأنثوية تكونت النطفة المخصبة

(*) سورة الإسراء، الآية ٧٠.

وهـــي الـــنطفة الأمشاج على نحو ما سبق ذكره. بعد التلقيح مباشرة تبدأ النطفة الأمشـــاج فـــي الانقسام والنمو إلى أن تصير على هيئة كرة جرثومية، وعندئذ تدفعها الشعيرات الدقيقة لقناة الرحم إلى أن تصل إلى الرحم، حيث القرار المكين المعد بدقة وإحكام لاستقبالها وتسكينها فتقر في الرحم to rest in the womb. فتلتصـــق بجـــدار الـــرحم وتـــتعلق به فتصير علقة وذلك في اليوم السادس من الإخصاب.

والعلقـــة leech- like clot هـــي جسم صغير جداً لا يزيد حجمه عن نصـــف ملليمـــتر مكعب على هيئة ثمرة التوت، تلتصق بالجزء العلوي للرحم. وتـــتكون العلقة من طبقتين من الخلايا، طبقة الخلايا الخارجية التي تتعلق بغشاء الـــرحم، وطـــبقة الخلايـــا الداخلـــية التـــي يـــتكون مـــنها الجنيـــن embryo بأمـــر ربها. وتحاط العلقة بدماء غشاء الرحم. وفي هذه الفترة يتم اتصال مباشر بيـــن دمـــاء الأم وخلايا التغذية في الجنين لتتم تغذية الجنين. كذلك يحصل هذا الجنيـــن على غذائه أيضاً مما يسمى بلبن الرحم. وهو عبارة عن إفرازات غدد الـــرحم التي تعد بالآلاف. وواضح أن تسمية الله سبحانه وتعالى الجنين في هذه المـــرحلة بالعلقـــة تسمية دقيقة؛ إذ أنها تصف بدقة وضع الجنين في الرحم في الفـــترة الأولى من الإخصاب والتي تستغرق حوالي ثلاثة أسابيع تبدأ بعدها في التحول من العلقة إلى المضغة.

والمضغة somites هي الجنين في أسبوعه الرابع، ويبدو كتلاً بدنية أو كتلاً لحمية. وفي هذه المرحلة يبدأ الجهاز العصبي nervous system في النمو ويبدأ تكوين المخ brain والفم وحويصلة العين وحويصلة السمع ثم قرص الشم. كذلـــك يبدأ في هذه المرحلة تكوين القناة الهضمية ويبدأ ظهور القلب. وفي نفس الوقـــت تتصل الدورة الدموية في الجنين اتصالاً تاماً بالدورة المشيمية لرحم الأم

ليحصل على حقه من الغذاء الذي رزقه له الله الرزاق كاملاً. كما يبدأ الجهاز البولي urinary system في الظهور في هذه المرحلة. كذلك يتضح أن تسمية الله سبحانه وتعالى للجنين بهذه المرحلة بالمضغة هي أفضل وأدق تسمية ممكنة إذ يبدو الجنين في هذه الحالة كقطعة اللحم التي غرزت فيها الأسنان والضروس لتمضغها ثم قذفت من الفم.

تكوين العظام وكسوتها باللحم ... وتستغرق هذه المرحلة حوالي ثلاثة أسابيع، هي الأسبوع الخامس والسادس والسابع. ويتم ذلك بأن تتحول الكتل البدنية بالمضغة إلى عظام الفقرات وعظام الأطراف العليا والأطراف السفلي، وكذا العمود الفقري backbone في المنطقة الصدرية. ويتم في هذه المرحلة كذلك تكوين عظام الوجه والفكين وعظام الأذن الوسطى وقحفة الجمجمة، وبذلك يتشكل الجهاز الهيكلي لجسم الإنسان.

يلي تكوين العظام تكوين العضلات ثم تكوين الجلد. فيتكون في هذه المرحلة معظم عضلات الجسم خاصة الموجود منها في الجذع والعنق وعضلات الأطراف العلوية والأطراف السفلية. يتشكل بعد ذلك أدمة الجلد وما تحت الجلد من أنسجة.

وكما سبق إيضاحه تتكون العظام في فترة سابقة عن تكون العضلات ولو ببضع أيام ثم تأتي العضلات بعد ذلك لتكسوها لحما. ويأتي هذا مصداقاً لقول العليم الخبير: ***(فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً)***(*).

ثم تأتي مرحلة إنشاء الله عز وجل الجنين خلقاً آخر ... وفي هذه المرحلة يبدأ الخالق تصوير الوجه على نحو يتيح للإنسان أن يختلف عن

(*) سورة المؤمنون، بالآية ١٤.

الآخرين ويتباين عنهم بعد ولادته، فسبحان الله الخالق البارئ المصور الذي قال: (وصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ)[1].

كذلــك يدخــل فــي هذه المرحلة تسوية الجنين بحيث يأخذ شكلا أكثر اعــتدالاً، وعلــى الــرغم مــن أن هــذه العملية مستمرة في الإنسان في جميع مــراحل تطوره بالرحم أو بعد الرحم في الطفولة childhood والشباب youth والشيخوخة old age إلا أنها تكون في ذروتها في مرحلة الجنين إذ أنها مرحلة تكويــن الأعضــاء organo genesis. ففي هذه المرحلة تزداد أعضاء الجنين ظهوراً وتزداد أجهزته نضوجاً ويزداد جسم الجنين استقامة واعتدالاً من بعد شدة تقــوس. وتتضح هذه المرحلة في القرآن الكريم في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْأِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)[2]. كذلــك يكتمل البناء الأساسي لكل من القلب والدماغ والأطراف والجهاز السمعي والجهــاز البصري optic system في هذه المرحلة. فسبحان من وهبنا كل هذه الــنعم التــي لا تعد ولا تحصى ... ومع ذلك فالإنسان لا يشكر ربه حق شكره وهــذا مــا جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)[3].

جنس الجنين:

يقصد بجنس الجنين، ما إذا كان الجنين ذكراً أم أنثى. بمعنى ما سيكون عليه جنس الجنين بعد اكتمال نموه وولادته ... ولداً أم بنتاً.

---

[1] سورة التغابن، بالآية ٣.

[2] سورة الانفطار، الآيات من ٦ إلى ٨.

[3] سورة السجدة، بالآية ٩.

وفي علم الله الخبير العليم معروف جنس الجنين منذ الأزل، أي قبل أن يخلق الله سبحانه وتعالى هذا الخلق. وكما سبق القول فقد أطلع الله عز وجل عبده آدم عليه السلام على جميع بنيه ... بني آدم قبل أن يخلقوا منذ الأزل في يوم عرفة. فعلم الله عن كل صفات خلقه ومنها الصفات الجنسية المعروفة منذ الأزل. أي قبل أن يكونوا بالأرحام بزمن لا يحصيه إلا هو سبحانه وتعالى.

ومن ناحية الصفات الوراثية المادية يتحدد جنس الجنين في أو لحظة يتم فيها إخصاب نطفة الأنثى وهي البويضة بنطفة الذكر وهي الحيوان المنوي. فإذا ما التقى حيوان منوي يحمل صفة الذكورة (Y) بالبويضة التي تحمل دائماً صفة الأنوثة (X) يكون الجنين ذكراً بمشيئة الله. وإذا ما التقى حيوان منوي يحمل صفة الأنوثة (X) بالبويضة يكون الجنين أنثى بمشيئة الله. ففي الحالة الأولى التي يكون فيها الجنين ذكراً تكون النطفة الأمشاج حاملة صفة الذكورة (X Y). وفي الحالة الثانية التي يكون فيها الجنين أنثى تكون النطفة الأمشاج حاملة صفة الأنوثة (XX). وهذا يؤكد أن نطفة الرجل هي السبب في تحديد نوعية الجنين ذكراً أم أنثى. ولعل هذا يأتي متفقاً مع قوله تعالى: *(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)*[1]. كذلك قال تعالى: *(أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى)*[2]. وواضح أن النطفة التي تمنى هي مني الرجل كما سبق إيضاحه.

وعلى الرغم من أن جنس الجنين يتحدد منذ لحظة الإخصاب، إلا أن أحداً لا يعلم ذلك إلا الله سبحانه وتعالى. وأن أحداً من البشر لا يمكنه أن يعلم ذلك إذا كانت النطفة الأمشاج بداخل الرحم. أما إذا أخرجت من الرحم

---

[1] سورة النجم، الآيتان ٤٥، ٤٦.

[2] سورة القيامة، الآيات من ٣٧ إلى ٣٩.

وحللـــت تحليلاً كروموسوميا أمكن الكشف عن جنس الجنين وذلك بتحديد ما إذا كانـــت الـــنطفة تحمل صفة الذكورة (Y) أم تحمل صفة الأنوثة (X). ولا توجد طـــريقة أخرى للكشف عن جنس الجنين خارج الرحم في هذا الوقت المبكر. إذ أن الصـــفات الجنسية لا يكون إحداثها قبل مرور اثنتين وأربعين ليلة. .. لماذا؟ لأن الله ســبحانه وتعـــالى لا يأمـــر بأحداث الصفات الجنسية قبل مرور اثنتين وأربعيـــن لـــيلة. يؤكـــد هذا ما جاء في صحيح مسلم مروياً عن حذيفة بن أسيد رضي الله تعالى عنه من أن رسول الله ﷺ قال: *"إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها. ثم قال يا رب أذكر أم أنـــثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يقول يا رب أجله فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يقول يا رب رزقه، فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك. ثم يخرج الملك بالصحيفة في يـــده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص"*[١].وواضح أن المقصود بالنطفة في هذا الحديث هي النطفة الأمشاج المخصبة برحم الأنثى.

والآن يمكن القول بأن جنس الجنين في الفترة من بدء الإخصاب وحتى مـــرور اثنتين وأربعين ليلة يعتبر في علم الغيب لا يعلمه إلا الله علام الغيوب. وبعد مرور اثنتين وأربعين ليلة يطلع الله العلام أحداً من عباده، هو أحد الملائكة علـــى جـــنس الجنين حين يسأل يا رب أذكر أم أنثى؟ ولعل هذا يتمشى مع قوله تعـــالى: ***(عَـــالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً)***[٢]. إذ أن كلمة الرسول هنا تشمل الرسول الملائكـــي angel messenger والرسول البشري human messenger. كما

---

[١] أبـــو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، الجزء الثامن، كتاب القدر، صـــ٤٥.

[٢] سورة الجن، الآيتان ٢٦، ٢٧.

أوضـــح ابن كثير في تفسيره[١] وسبق بيانه في الفصل الثالث. ومن ثم فيفهم من علم الغيب في الأرحام هنا أن الله سبحانه وتعالى يمكن أن يطلع من يرتضيه من عـــباده على بعض علمه. وسيرد مناقشة هذه النقطة باستفاضة عند الحديث عن تفسيرات بعض الأئمة للخطوات العلمية الحديثة حول الكشف عن جنس الجنين.

يفهـــم ممـــا ســـبق أن جنس الجنين يظل في علم الغيب قبل مرور ستة أســـابيع (اثنتيـــن وأربعيـــن لـــيلة) وذلـــك إذا كـــان الجنيـــن في الرحم وليس خارجـــه. فلو نزل الجنين سقطاً من رحم أمه لا يمكن بحال من الأحوال تمييز جنســـه ومعـــرفة نوعـــه (ذكر أو أنثى)، إلا إذا شرح وحللت أحد خلاياه تحليلاً كروموسومياً دقيقاً. إذ أن غدد التناسل سواء كانت الخصية في الذكر أو المبيض فـــي الأنثى تتشابهان تماماً في هذه الفترة، وهي تلك التي سبق قضاء الله سبحانه وتعالى ما يشاء وكتابة الملك لذلك على الجبين في رحم أمه كما جاء في الحديث الشريف السابق.

وفي بداية الأسبوع السابع تبدأ الخصية testical في النمو من جزء بين الصـــلب والترائب (العمود الفقري والأضلاع) كما أعلمنا الله سبحانه وتعالى في القـــرآن الكـــريم فـــي قوله تعالى: ***(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْـــرُجُ مِـــنْ بَيْـــنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)***[٢] .ثم تنزل إلى الحوض bony pelvis تدريجـــياً فتصله في الشهر السابع من الحمل، ثم بعد ذلك تأخذ طريقها إلى كيس الصفن خارج جسم الجنين في الشهر التاسع من الحمل.

---

[١] إســـماعيل بـــن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، الجزء الرابع، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص ٤٣٤.

[٢] سورة الطارق، الآيات من ٥ إلى ٧.

وبالنسبة لبويضة الأنثى فتبدأ في النمو في الأسبوع السابع من الحمل أيضاً، وإن تأخرت في ذلك عن الخصية في حالة كون الجنين ذكراً ولو ببضعة أيام. وتسلك البويضة نفس مسلك الخصية فتنمو من نفس الجزء الذي تنمو منه الخصية ثم تنزل إلى الحوض تدريجياً فتصل إليه في الشهر السابع من الحمل، إلا أنها لا تأخذ طريقها إلى خارج جسم الجنين.

وتتشابه الأعضاء التناسلية الظاهرة للذكر والأنثى تماماً، وغالباً ما لا يمكن التمييز بينهما إلا بعد مرور ثلاثة أشهر على الأقل إذ يمكن أن يتم ذلك في بداية الشهر الرابع. وعموماً يمكن تمييز جنس الجنين في الفترة ما بين الأسبوع الثامن وبداية الأسبوع العاشر تشريحياً لو نزل سقطاً، ولا يمكن تمييز جنسه بحال من الأحوال وهو بالرحم في هذه الفترة المبكرة.

وفي نهاية الشهر الثالث يبدأ ظهور علامات نفخ الله من روحه breathing into him something of his spirit في الجنين. فيتقلب في الرحم ويسمع الأصوات وينام ويصحو. كما ينضج بناء الجهاز العصبي ويكتمل اتصال الأعصاب بالمخ.

كذلك يبدأ ظهور كتابة لا مثيل لها على جبين الجنين وبين عينيه. وتظهر بصمات أصابعه الفريدة التي لا نظير لها. وكما سبق القول يأمر الله سبحانه وتعالى الملك فيكتب هذه الكتابة على جبين الجنين بعد مرور اثنتين وأربعين ليلة؛ وذلك على نحو ما يتضح من الحديث النبوي الشريف السابق الذي روي عن الصحابي حذيفه بن أسيد رضي الله تعالى عنه.

وتكتب هذه الكتابة على جبين الجنين ووجهه بشفرة معينة تتسم بالروعة والإحكام. وتكتب هذه الكتابة بشعيرات دموية دقيقة. وهذه الكتابة فريدة في هيئتها بالنسبة لكل جنين، فلا يوجد اثنان من البشر تتشابه الكتابة على جبينها

مهما قربت درجة قرابتها. فالإخوة لا تتشابه الكتابة على جبينهم على الإطــلاق ولو كانوا إخوة أشقاء أو حتى توائم. ويأتي هذا مصداقاً لما جاء فــي الحــديث النبوي الشريف الذي أخرجه البزار مروياً عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما إذ قال: قال رسول الله ﷺ *"إذ خلق النسمة قال ملك الأرحام، أي رب ذكــر أم أنثى؟ قال فيقضي الله أمره. ثم يقول أي رب شقي أم سعيد؟ فيقضي الله أمره. ثم يكتب ما بين عينيه حتى النكبة ينكبها"*[1]. ومعنى هذه الكتابة لا يعلمه إلا الله ســبحانه وتعــالى والملك الذي أمره الله بكتابتها، ومن يشاء الله سبحانه وتعالى من عباده. وتتضمن هذه الكتابة كل ما يتعلق بمستقبل الجنين قبل وبعد أن يولد مثل أذكر هذا الجنين أم أنثى وما إذا كان سيولد أم سيموت قبل ولادته، وشقي أم سعيد وعبد أم ســيد ورزقه ومستقبله وأخلاقه وخلائقه وأجله وبأي أرض يمــوت. وتتضــح هــذه الفحوى للكتابة من الحديث النبوي الشريف الذي روي عن عبد الله بن مسعود إذ قال: قال رسول الله ﷺ *"إذ وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً فقال يا رب مخلقــة أم غير مخلقة، فإن قال غير مخلقة مجتها الأرحام دماً.. وإن قيل مخلقة قال أي رب شقي أم ســعيد؟ ما الأجل ما الأثر وبأي أرض تموت"*[2].

وبنفخ الروح في الجنين يبدأ الجنين في التحرك الإرادي. إذ أن تحركــه قبل ذلك في رحم أمه كان لا إرادياً نتيجة لنموه الذي لا دخل له فيه، مثله فــي ذلك مثل قربة مملوءة بالماء فتتحرك أجزاؤها تبعاً لذلك تلقائياً لتتلاءم مع الحجم الجديد للماء الداخل فيها. كذلك وبنفخ الروح ترتسم على وجــه الجنــين دلالات

---

(1) أخرجه البزار عن بن عمر. انظر: زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الــدين بــن أحمد بن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ص ٥٩، ٦٠.

(2) أخرجه بن أبي حاتم وابن رجب. انظر: زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين ابن أحمد بن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، المرجع السابق، ص ٤٧، ٤٨.

الرضـــا أو الضيق حسب ما يشعر به فسبحان من خلق فسوى ونفخ في الإنسان من روحه فسما به عن كثير ممن خلق على الرغم من طبيعته الطينية.

ولا ينبغي أن يفهم من ترتيب النمو سابق الذكر أن نمو عضو لا يبدأ إلا بعد الانتهاء من نمو الآخر. إذ أن عمليات النمو للأعضاء متداخلة ومتواصلة... صـــحيح توجــد أعضاء تسبق بعضها في بداية النمو وأخرى تسبق بعضها في اكــتمال نموها، إلا أن كثيراً من الأعضاء والأجهزة تنمو نمواً آنياً؛ أي تتزامن مـــع بعضـــها البعض في النمو. كذلك فإن عملية هدم وإعادة بناء أجهزة الجسم المخـــتلفة مســـتمرة لا تـــتوقف سواء كان الإنسان جنيناً في الرحم أو حتى بعد الولادة.. طفلاً كان أو شاباً أو كهلاً!!.

كذلـــك لا ينبغي أن يفهم مما سبق أن كل الأجنة في الأرحام تخلق وتبدأ الـــنمو ويكتمل نموها على نحو متسق وعلى نحو واحد من الصحة والسلامة. إذ أن إرادة الله ولحكمـــة معيـــنة تقضي بأن تحدث بعض التشوهات لبعض الأجنة فـــتولد بها بعض العيوب الخلقية فمنهم من يولد فاقداً لجزء من جسده أو لعضو مـــن أعضائه. ومنهم من يولد بأعضاء غير مكتملة النمو أو غير متناسقة النمو علـــى نحو طبيعي. ومنهم من يولد وبه مرض وراثي أو غير وراثي ومنهم من يولـــد بأعضـــاء زائدة فسبحان الذي يصور في الأرحام كيف يشاء. كذلك وفي الوقت الذي يولد فيه الجنين ذكراً أو أنثى يمكن أن يولد خنثى. والخنثى قد تكون ذكراً إلا أن ظاهره أنثى، أو قد تكون أنثى وفي ظاهرها ذكر، وفي كلتا الحالتين تكون الخنثى غير حقيقية. كما قد يولد الجنين خنثى حقيقة أي له خصية ومبيض في آن واحد.. فسبحان من خلق كل شيء بقدر ولحكمة.

خطوات علمية في مجال الكشف عن جنس الجنين:

حقـــق علماء علم الأجنة البشرية human embryology مؤخراً بعض الخطـــوات العلمية الهامة في مجال الكشف عن جنس الجنين. إذ استطاع هؤلاء

العلماء إلى حد ما معرفة ما إذا كان الجنين لذكر أم لأنثى وذلك بإجراء بعض الاختبارات والفحوص الطبية. ولقد اتخذت هذه الاختبارات والفحوص نهجين مختلفين. تمثل النهج الأول في محاولات الكشف عن جنس الجنين في حالة الحمل الطبيعي؛ أي محاولة الكشف عن جنس الجنين وهو برحم الأم. بينما تمثل النهج الثاني في محاولة الكشف عن جنس الجنين المتكون في المختبر؛ أي محاولة الكشف عن جنس الجنين المتكون بالأنبوب في مراحل نموه المبكرة قبل زراعته برحم الأم.

أولاً ــ الكشف عن جنس الجنين بالرحم:

ويمكن الكشف عن جنس الجنين بالرحم بطريقتين الأولى بفحص السائل الأمنيوسي والثانية باستخدام الموجات الفوق صوتية وفيما يلي إيضاح ذلك:

أ – بفحص السائل الأمنيوسي:

وتتمثل هذه الطريقة في غرز إبرة دقيقة لسحب كمية من السائل الأمنيوسي (الرهل) المحيط بالجنين بداخل كيس السلى الموجود بالرحم. ويصل حجم هذا السائل الأمنيوسي حوالي لتراً ونصفاً وتتناثر فيه بعض الخلايا الجنينية. وبسحب كمية معينة من هذا السائل يمكن فحص هذه الخلايا الجنينية لمعرفة ما إذا كانت تحمل صفة الذكورة (Y)، أو تحمل صفة الأنوثة (X) وبالتالي يمكن الكشف عن جنس الجنين ومعرفة ما إذا كان الجنين لذكر أم لأنثى. ووفقاً لعلم الأجنة، وكما سبق إيضاحه فإن هذه الطريقة لا يمكن إجراؤها إلا بعد مضي أربعة أشهر على الأقل من وقت الإخصاب.

ب- باستخدام الموجات فوق الصوتية:

كذلك فهناك طريقة أخرى للكشف عن جنس الجنين بالرحم، تتمثل في الكشف على رحم الأم بالأشعة أو الكشف بما يعرف بالموجات فوق

الصوتية، باستخدام جهاز السوند جرام، لتمييز الأعضاء الذكرية من الأعضاء الأنثوية.

وبالنسبة للطريقة الأولى للكشف عن جنس الجنين بالرحم فإن سحب جزء من السائل الأمنيوسي ربما يسبب ضرراً معيناً للجنين. لأن سحب حجم معين من هذا السائل سيقلل بلا شك من الحجم الكلي له حول الجنين. ومعروف أن للسائل الأمنيوسي وظائف وفوائد كثيرة للجنين أثناء تكوينه ونموه بالرحم مثل تغذية الجنين بما يحتوي عليه من مواد زلالية وسكرية وأملاح غير عضوية قابلة للامتصاص ومثل حماية الجنين ووقايته من أي صدمات أو سقطات تتعرض لها الأم فجأة. وكذا السماح للجنين بالحركة الكاملة بحرية داخل الرحم ومنع التصاق غشاء الأمنيون من الالتصاق بالجنين وبالتالي عدم تعرضه لتشوهات خلقية وكذلك توفير درجة حرارة ثابتة للجنين مناسبة لنموه(*). ولما كان هذا السائل على هذه الدرجة من الأهمية فينبغي تواجده بكيس السلى حول الجنين بحجم معين ليؤدي وظائفه بكفاءة. ويتناسب حجم هذا السائل حول الجنين مع عمر الجنين وحجمه، وكذا صفات أخرى كثيرة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى لأنه العليم الحكيم الذي خلق كل شيء بقدر. ولو سلمنا جدلاً بما يردده بعض علماء الأجنة من أن رحم الأم يمكن أن يعوض الجنين الجزء المسحوب من هذا السائل، فإن عملية التعويض هذه تكون على حساب صحة الجنين ومعدلات نموه كما أنه من المرجح أن عملية أخذ حجم معين من هذا السائل لاختباره وإجراء الفحوصات عليه يعرض الجنين لبعض الأذى.

وبالنسبة للطريقة الثانية التي تعرض الجنين بالرحم لأشعة معينه أو موجات معينة فربما تسبب أيضاً آثاراً ضارة على الجنين. إذ أن الأشعة أو

(*) الدكتور محمد علي البار، خلق الإنسان بين الطب والقرآن، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة السادسة، عام ١٤٠٦هـ : ١٩٨٦م، ص ٤٢٤.

الموجــات التــي يــتعرض لها الجنين ربما يكون لها تأثير ضار على الصفات الوراثــية للجنيــن عــن طريق التأثير على الجينات. ومن ثم تؤثر على صفات المولــود وربما تؤثر على ذريته في المستقبل. فعلى سبيل المثال ربما تؤثر هذه الأشــعة علـــى مســتوى ذكاء المولود فيتحول من ذكي شديد الذكاء إلى إنسان متوســط الذكــاء أو مــتخلف عقلياً. وربما يقول قائل بأن الأشعة أو الموجات المســتخدمة لــيس لهــا آثار ضارة على الإنسان. والرد على ذلك هو أن عدم ملاحظــة آثــار ضارة لهذه الأشعة أو الموجات على الإنسان ليس معناه انعدام آثارهــا السيئة على الجنين. كما أن عدم ملاحظة آثار ضارة لهذه الطريقة على الإنسان لا يعني بالقطع سلامتها المطلقة عليه، فربما يثبت العلم فيما بعد أن لهذه الأشعة أو الموجات آثاراً خطيرة على الإنسان خاصة لو تعرض لها في مرحلته الجنينــية، مثلها في ذلك مثل بعض الأشعة الأخرى كالأشعة الكونية مثلاً. ولعله مــن الملائــم ذكــره فــي هذا الصدد أن للأشعة الكونية تأثيرات جوهرية على الصــفات الوراثية للكائنات الحية، إذ أنها كثيراً ما ينتج عن التعرض لها تكون مسوخاً لهذه الكائنات وذلك على نحو ما أثبتته التجارب على حشرة ذبابة الفاكهة المعــروفة باسم ذبابة الدروسوفلا مثلاً. صحيح أن الأشعة المستخدمة في اختبار الكشــف ليست هي الأشعة الكونية إلا أنه من يدري فربما يتبين فيما بعد أن هذه الأشعة أشد خطراً من الأشعة الكونية من ناحية معينة.

كذلــك فإن الكشف عن الجنين بالرحم باستخدام بعض الأشعة ربما يؤثر على درجة الإظلام المحيطة بالجنين بما يحتمل معه التسبب في ضرر له. إذ أن الإظــلام يســتهدفه الله الخالق المبدع لنمو الجنين على نحو صحيح، ولعل هذا يتبيــن من قوله تعالى: (***يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ***

ثَلاثٍ)[*]. إذ يرجح بعض العلماء والمفسرين أن تكون هذه الظلمات هي ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة. ومن يدري فربما تؤثر هذه الأشعة التي تكشف هذا الستر الذي أحاطه الله العليم بالجنين تأثيراً سيئاً عليه أو على أحد حواسه كالإبصار مثلاً!! ولم لا؟. ألا ينبه الأطباء من خطورة ضوء التليفزيون على عين الإنسان حتى لو كان شاباً يافعاً وينصحون بالجلوس على مسافة غير قريبة منه.

وبصفة عامة يمكن القول بأن محاولات الكشف عن جنس الجنين بالرحم على نحو ما سبق ذكره ربما يكون لها آثار ضارة على الجنين. ولا يمكن في هذا المجال قبول ترجيحات علماء الأجنة من عدم وجود آثار لهذه الطرق على الجنين أو الإنسان الذي يولد بعد ذلك، إذ أن تأكيد أو نفي هذه الاحتمالات لا يمكن حسمه قبل مضي عشرات السنين، وهي الفترة اللازمة لميلاد الجنين ونموه طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً، بل لا يمكن الجزم بانعدام أثرها قبل فحص وملاحظة ذريته !!.. فربما يحمل الجنين أسباب مرض معين نتيجة لهذه الاختبارات والفحوص دون أن يصاب به ودون أن تظهر عليه أعراضه لكنه ينقل هذا المرض في المستقبل لذريته!!.

وأخيراً أكد العلماء في السويد أن استخدام الأشعة فوق الصوتية (السونار) للكشف عن جنس الجنين يسبب تغييراً في مخ الجنين إذ تبين أن الذكور الذين يولدون لأمهات تعرضن لاختبارات طبية استخدمت فيها الأشعة فوق الصوتية يكونون على الأرجح عسراً أي يستخدمون اليد اليسرى، كذلك استنتج العلماء من التجارب التي أجريت أن الجهاز العصبي المركزي لبعض

---

[*] سورة الزمر، بالآية ٦.

الأجنة الذكور يتأثر بالأشعة فيتحولون من يمن إلى عسر مما يحمل على الاعتقاد بأن ضرراً ما حدث في المخ(*).

ثانيا – الكشف عن جنس الجنين خارج الرحم:

كذلك حقق علماء الأجنة والوراثة خطوات علمية هامة نحو الكشف عن جنس الجنين المتكون خارج الرحم خلال مراحل نموه الأولى. إذ تمكن هؤلاء العلماء عن طريق إجراء بعض الفحوصات الطبية بالمختبرات من معرفة ما إذا كان الجنين المتكون بالأنبوب بالمختبر لذكر أم لأنثى. ويمكن إجراء هذه الطريقة على الجنين المتكون بالمختبر مثل أجنة الأنابيب في حالة إخصاب البويضة خارج الرحم. كما يمكن إجراؤها كذلك على الأجنة الحية التي يمكن إخراجها من رحم الأنثى.

وتجرى هذه الطريقة بتناول المرأة عقاقير هرمونية لتحفيز مبايضها على إنتاج عدد من البويضات الناضجة في دورة واحدة، ثم يتم تجميع هذه البويضات وإخصابها بالمعمل. ويتم إخصاب البويضة خارج الرحم في المعمل بأن تترك البويضة مع الحيوانات المنوية لمدة يوم أو يومين فيما يسمى بالمزرعة، كأنبوبة اختبار مثلاً. يتم بعد ذلك اختبار البويضة لمعرفة ما إذا كانت قد أخصبت بنجاح أم لا. وغالباً ما تتبع هذه الطريقة في حالة عقم المرأة نتيجة لانسداد قناة فالوب. وبعد تمام إخصاب البويضة تتكون النطفة البشرية وهي عبارة عن جنين ذي ثماني خلايا.

ولإجراء اختبار الكشف عن جنس الجنين يقوم العلماء بعمل فتحة صغيرة في الغلاف الخارجي للجنين المتكون. ويسمى هذا الغلاف غليكوبروتين

(*) جريدة صوت الأزهر، الجمعة ٢١ شعبان عام ١٤٢٤هـ الموافق ١٧ أكتوبر ٢٠٠٣م

ويعرف لدى الأخصائيين باسم (زونابليوسيدا). يتم إدخال أنبوب دقيق من الفتحة الصغيرة بالغلاف الخارجي تضخ رذاذاً رفيعاً من مادة حمضية داخل هذه الفتحة. يتم بعد ذلك إدخال أنبوب آخر أكبر من السابق قليلاً من خلال الفتحة نفسها لأخذ خلية أو خليتين بالشفط. ثم يعاد الجنين الذي سحبت منه الخلية إلى وضعه الأصلي داخل الأنبوب ليستمر في النمو.

تؤخذ الخلية المسحوبة بعد ذلك لإجراء الاختبارات والفحوص الطبية عليها للكشف عن نوع الجنين، وذلك لمحاولة معرفة ما إذا كانت الخلية تحمل صفة الذكورة (Y) أو صفة الأنوثة (X). وبالتالي يمكن معرفة ما إذا كانت الخلية لجنين ذكر أم لجنين أنثى.

وتستخدم هذا الطريقة لتحديد المرض الوراثي في الجنين داخل المختبر. فإذا ثبت أن الأجنة الموجودة بالمختبر سليمة، أي خالية من الأمراض الوراثية تنقل من الأنابيب إلى أرحام الأمهات، وتستمر بعد ذلك حالة الحمل والوالدين مطمئنين بأن الطفل المولود أو الطفلة المولودة ستكون خالية من الأمراض.

وتجرى هذه الفحوصات بطبيعة الحال بالنسبة للأزواج الذين يواجهون خطر نقل أمراض وراثية (جينية) لأبنائهم مثل أمراض نقص التغذية وتليف المثانة. إذ أن بعض الأزواج الذين سبق لهم إنجاب أطفال مرضى أو متخلفين يتوقعون أن يكون الحمل الجديد لأطفال معلولين،ومن ثم فإنهم يفضلون الكشف على الجنين في المختبر للتأكد من خلوه من الأمراض الوراثية قبل إعادة غرسه في الرحم مرة أخرى. كذلك يمكن إخصاب البويضة خارج رحم الأم في الأنبوب بالمختبر ثم الكشف على الجنين المتكون للتأكد من خلوه من الأمراض الوراثية قبل غرسه في داخل رحم الأم في نفس اليوم.

وتفيد طريقة الكشف عن جنس الجنين بالمختبر هذه في تجنب إصابة المواليد بأمراض ترتبط بجنس المولود مثل التخلف العقلي مثلا. إذ من المعروف أن هناك أمراضاً وراثية لا تصيب إلا الذكور فقط وتنتقل إليهم جيلاً بعد جيل عن طريق الإناث الأمهات اللاتي يحملن الجينات المصابة دون أن يصبن بالمرض!!، ومن أمثلة هؤلاء النساء الملكة فيكتوريا، أحد الملكات السابقة لبريطانيا. ومن ثم كانت محاولات العلماء تحديد الأجنة الذكرية من الأجنة الأنثوية كمحاولة لزرع الأجنة الأنثوية لضمان عدم إصابتها ببعض الأمراض التي تصيب الذكور مثل الهيموفيليا والأنيميا والتخلف العقلي ونقص التغذية. وبالتالي يمكن تجنب إنجاب أطفال معوقين بسبب الأمراض الوراثية. كما يمكن تجنب عمليات إجهاض النساء اللاتي يحملن في أرحامهن أجنة ذكرية مصابة. إذ أن ذلك يتطلب تكرار حالات الحمل للمرأة والكشف عن جنس الجنين بعد ذلك في الرحم والتي لا يمكن إجراؤها قبل أربعة أشهر على الأقل وبالتالي يضطر النساء إلى اللجوء إلى عمليات الإجهاض المتكرر إلى أن تحصل على أنثى في رحمها!!. إذ أن الاختبارات والفحوصات المعملية تعزل هذه الخلايا ولا تعيد للرحم أو تزرع فيه سوى الخلية الأنثوية السليمة.

ويعتقد علماء الأجنة والوراثة أن هذه الاختبارات والفحوص لا تؤثر على سلامة الجنين الأنثوي المعاد زرعه في الرحم، ولا تؤثر على قدرته على النمو الطبيعي. إذ قارنوا بين جنين سحب منه خلية وآخر لم تسحب ولم يجدوا بينهما فروقاً في نمو كل منهما أو سلامته.

وحقيقة فإنني أعتقد أن هؤلاء العلماء قد جانبهم الصواب في استنتاجهم هذا. إذ من غير المعقول أن يستقطع $\frac{١}{٨}$ الجنين ولا يكون لذلك تأثير عليه. فهل

يعقل مثلاً أن ينمو جنين لم يتبق منه سوى $\frac{٧}{٨}$ بنفس القدر من النمو لجنين كامل بحيث يكونان في النهاية بنفس قوة البنية؟!!. واضح أن الإجابة على هذا السؤال بالنفي. يدل على ذلك ما أوضحوه في نتائج أبحاثهم من أن فحص نسبة الجلوكوز في الجنين أوضحت وجود نقص بها بمقدار $\frac{١}{٨}$ في الجنين الذي استقطع منه أحد خلاياه الثماني وذلك بالنسبة للجنين الذي لم يستقطع منه شيء. ويلاحظ أن هذه النسبة هي نفس نسبة ما استقطع من الجنين من خلايا. كذلك فإنني أعتقد أن سلامة الجنين لا يمكن استنتاجها من مجرد ملاحظة النمو الطبيعي للجنين. إذ أن ذلك لا يمكن الجزم به قبل أن يولد الطفل وينمو. فربما أصيب هذا الجنين نتيجة لذلك بمرض لا يظهر عليه قبل مرحلة الشباب أو الشيخوخة مثلاً. كذلك فليس هناك ضمان على أن هذا الإنسان يمكنه أن ينجب في المستقبل أم لا، وإذا أنجب فليس هناك ضمان لأن تكون ذريته غير معلولة في المستقبل!!.

ملاحظات على الخطوات العلمية للكشف عن جنس الجنين:

يتبين من الخطوات العلمية السابق تناولها في مجال الكشف عن جنس الجنين عدة ملاحظات هامة يمكن إيجازها في النقاط التالية:

أولاً ــ يلاحظ أن جنس الجنين لا يتحدد في الرحم قبل مرور ستة أسابيع ومن ثم فإن الكشف عنه قبل ذلك يعتبر ضرباً من المستحيل مهما تقدم العلم في هذا المجال وكما يلاحظ أن طرق الكشف عن جنس الجنين بالرحم سالفة الذكر لا يمكن إجراؤها قبل مضي أربعة أشهر على الأقل. وهذا النوع من الكشف هو ما سوف نهتم بمناقشته فيما بعد على أساس أنه مثار الجدل في موضوع علم الله بما في الأرحام.

ثانياً ــ يلاحظ أن كل طرق الكشف عن جنس الجنين المعروفة والسابق بيانها من المرجح أن يكون لها أثر سيئ على الجنين أو الإنسان المولود في المستقبل في أي مرحلة من مراحل حياته، بل وربما يمتد هذا الأثر إلى ذريته في المستقبل.

ثالثاً ــ على الرغم من هذه الخطوات العلمية في مجال الكشف عن جنس الجنين إلا أن نتائجها ليست قطعية، أي أنها تحتمل الخطأ والصواب وبالتالي لا يمكن الجزم بصفة مطلقة بأن العلماء يمكنهم الكشف عن جنس الجنين بدقة كاملة في كل حالات الحمل.

رابعاً ــ هناك حالات لا يمكن فيها الكشف عن جنس الجنين على الإطلاق باستخدام الأشعة في الكشف عما بالرحم على نحو ما سبق ذكره. إذ ربما لا يتطابق الشكل الجنسي الظاهري للأعضاء التناسلية مع التكوين الجنسي الحقيقي للغدة التناسلية لبعض الأسباب منها تعاطي الأم الحامل لبعض الهرمونات. وفي هذه الحالة ربما يكون جنس المولود في الحقيقة ذكر بينما الشكل الظاهري لأعضائه التناسلية تعطي انطباعاً بأنه أنثى وهو ما يعرف بالخنثى غير الحقيقية التي أصلها الذكر male pseudo hermaphrodite. كذلك قد يكون جنس المولود في الحقيقة أنثى بينما الشكل الظاهري لأعضائه التناسلية على هيئة ذكر وهو ما يعرف بالخنثى غير الحقيقية التي أصلها أنثى female pseudo hermaphrodite. في أي من هذه الحالات ستكون نتيجة الكشف بالأشعة لمعرفة جنس الجنين مضللة، بل وعكسية تماماً. كذلك فإن محاولات الكشف عن جنس الجنين بالطريقة الأولى المتمثلة في استخراج حجم معين من السائل

الأمنيوسي وتحليله ستكون مضللة أيضاً. لأن التحليل الكروموسومي ربما يوضح أن جنيناً ما لذكر على أساس أنه يحمل صفة الـذكورة (XY) بينما هو في الحقيقة خنثى. ومعـروف أن هـذه الخنثـى لا يمكنها القيام بدور الذكر كاملاً بمعنى عدم قدرتها على تزوج النساء والإنجاب منهن. كذلك قد يوضح التحليل الكروموسومي أن جنيناً ما لأنثى على أساس أنه يحمل صفة الأنوثة (XX) بينما هو في الحقيقة خنثى. وفي هذه الحالة لا يمكن لهذه الخنثى القيام بدور النساء كاملاً من حيث القدرة على الإحاضة، فضلاً عن عدم قدرتها على الحمـل والإنجاب.

كذلك فهناك حالات قليلة لخنثى حقيقية وفيها توجـد الخصـية والمبيض معاً، بينما الأعضاء الظاهرية إما لـذكر وإمـا لأنثـى أو لكليهما معاً، وفي هذه الحالة تكون الغدد التناسلية ضامرة غالباً. وفي نفس الوقت هناك حالات أخرى شاذة ليس هذا مجال ذكرها. وفـي جميع هذه الحالات عموماً لا تعطي نتائج الكشف بالأشـعة لمعرفـة جنس الجنين نتائج صحيحة. كما أن التحليل الكروموسومي للسـائل الأمنيوسي سيفرز نتائج لا يمكن أن يُعول عليها.

خامساًــ كذلك يلاحظ انه لو نجح الإنسان بالفعل نجاحاً كاملاً في معرفة جـنس الجنين بالرحم، وبفرض تعميم هذه الاختبارات والفحوص على كـل النساء الحوامل سيؤدي ذلك إلى كثير من حالات إجهـاض النسـاء، كما سيؤدي إلى حالات الإجهاض المتكرر وربما المتتـابع للمـرأة الواحدة وهذا ضار جداً بصحة المرأة وبقدرتها على الإنجاب. كما أن انتشار عمليات الإجهاض ستؤدي في النهاية إلى الإخـلال بالنسـبة

الطبيعـــية بيـــن الذكور والإناث التي قدرها الله الذي يخلق كل شئ بقدر.

سادســاً ــ يلاحـــظ أن كل محاولات الإنسان لمعرفة جنس الجنين كانت أصلاً بســـبب رغبـــته فـــي إنجاب الذكور وخوفه من إنجاب الإناث، بل ورغـــبة منه في التخلص منهن في كثير من الأحيان. إلا أن نجاحه فـــي الكشـــف عـــن جنس الجنين خارج الرحم بالمختبر أدى به إلى الـــتخلص مـــن الأجـــنة الذكور وإنجاب الإناث وهو ما سعى أصلاً لتفاديه!!!.

ســـابعاً ــ علـــى الـــرغم مـــن أن المجتمعات الغربية غير الإسلامية هي التي تحمســـت لتجارب وفحوصات الكشف عن جنس الجنين وتبنتها، إلا أنهـــا بـــدأت الآن تستشعر بخطورتها على مجتمعاتها فباتت قلقة من نتائجها فراحت تنادي بوضع تشريعات تحكم هذه التجارب وتحد منها كثـــيراً بحيـــث تقصرها فقط على الحالات التي يرجى منها الحيلولة دون انـــتقال الأمـــراض الوراثـــية والتـــي لا يمكن أن تتم تجاربها وفحوصاتها إلا على الأجنة بالمختبرات وخارج الأرحام... فسبحان الذي قدر فهدى!!.

محاولة التحكم في جنس الجنين:

لقـــد ظهرت في الآونة الأخيرة محاولات علمية كثيرة للتحكم في جنس الجنين وذلك باستخدام المعلومات العلمية المكتشفة عن صفات الحيوانات المنوية للذكر وبويضات الأنثى، ومواعيد الإخصاب وخلافه.

من هذه المحاولات ما طالعتنا به بعض الصحف عن اســتخدام ســاعة معينة يمكنها بالإضافة إلى تحديد الوقت، تعريف الزوجين بالأيام التي يرجح أن ينتج عن مباشرة العلاقة الزوجية فيها جنين ذكر وتلك التي يرجح أن تنتج عــن مباشرة هذه العلاقة جنين أنثى. ويتم ذلك بأن تضبط المرأة دورة اليد للساعة في بداية الدورة الشهرية وفي هذه الحالة ستشير الساعة إلى الأيام فــي كــل مــن الحالتين.

ولقد بنيت هذه الطريقة على ما هو معروف من صفات الكروموســومات. إذ ان الكروموسوم الذي يحمل صفة الذكورة (Y) بالحيوانات المنوية للرجل يصل إلى بويضة الأنثى أسرع من الكروموسوم الذي يحمل صفة الأنوثــة (X) بهــذه الحيوانات. والمهم في الأمر أن هذه الكروموسومات لو ضبط ميعاد تواجدها فــي مهبل الأنثى، بمراعاة سرعتها وميعاد استعداد البويضة الأنثوية للإخصاب يمكــن أن يحدث إخصاب لجنين من جنس معين. فعلى سبيل المثال لو حدث لقــاء بــين الزوجين قبل الإخصاب بفترة قصيرة بحيث تكون كافية فقط لوصول الحيوانــات المنوية الحاملة لصفة الذكورة إلى البويضة تلقح هذه البويضة وتصير نطفة أمشاج ذات الصفات (XY)، أي تكون لجنين ذكر بإذن الله. وإذا حدث اللقاء الزوجي قبل الإخصاب بفترة أطول ستصل الحيوانات المنوية التي تحمل صفة الــذكورة (Y) أسرع إلى البويضة التي لن تكون مهيأة للإخصاب في هذا الوقت المبكر، وبالتالي لن يتم استقبال أي منها، ومن ثم ستموت على جدارها دون إحداث حمــل. بينمــا تتأخر الحيوانات المنوية التي تحمل صفة الأنوثة (X) إلى أن تصل بعد ذلك إلــى البويضة وهي جاهزة للإخصاب فيحدث الحمل وتتكــون النطفــة الأمشــاج ذات الصفات (XX)، أي تكون جنينا لأنثى بإذن الله.

ملاحظات على الخطوات العلمية لمحاولة التحكم في جنس الجنين:

أولاً ــ إن مـــا يحدث من هذه المحاولات للتحكم في جنس الجنين يتم إن تم بـــإرادة الله الخالق المصور. إذ أن ما يولد نتيجة لهذه التجارب خلق لله وإن الله سبحانه وتعالى يخلق كل شيء بقدر ولحكمة. ومن المؤكد أن إجـــراء هـــذه التجارب من قبل علماء الأجنة يخضع لإرادة الله ومشـــيئته ولحكمة يعلمها. وربما يرى الإنسان جانباً معيناً من حكمة الله الحكـــيم في ذلك إلا أن كثيراً من جوانب هذه الحكمة يظهره الله ســـبحانه وتعـــالى مـــع الأيـــام. وعلى ذلك فلا يمكن لهذه التحارب والخطوات أن تتعارض نتائجها مع ما يقرره الله سبحانه وتعالى في كـــتابه الكريم وكل ما هناك أن الأمر يتطلب تنويراً لإفهام من التبس علـــيهم الأمـــر وهـــذا ما سيرد بالتفصيل في الفصل الأخير من هذا الكتاب.

ثانـــياً ــ أن هذه الطريقة تعتمد على الفارق بين سرعة الحيوانات المنوية التي تحمل صفة الذكورة وتلك التي تحمل صفة الأنوثة، وهذا الفارق في الحقيقة فارق نسبي وليس مطلقاً. بمعنى أن هذا الفارق ليس موجوداً فـــي جميع الأحوال فربما وجدت حيوانات منوية تحمل صفة الأنوثة أقـــوى وأســـرع مـــن نظيرتها التي تحمل صفة الذكورة. كذلك فإن المواعيد التي تكون فيها البويضة جاهزة للإخصاب مواعيد تقديرية ربما تختلف من امرأة لأخرى، بل وربما تختلف من فترة إلى أخرى أو مـــن بويضة إلى أخرى للمرأة الواحدة. ومن ثم فإن حدوث نتائج حمـــل عكســـية لنوع الجنين يعتبر أمراً وارداً، بل وشديد الاحتمال. وبالتالي تظل هذه الطريقة أو غيرها مجرد محاولات قد تخطئ وقد

تصـــيب. وعلى ذلك يمكن القول بأن هذه الطريقة لا يمكن اعتبارها مدخلاً علمياً لتحديد جنس الأجنة في الأرحام.

ثالـــثاً ــ إن نـــتائج هـــذه المحاولة للتحكم في جنس الجنين، وبفرض نجاحها، سيترتب عليها آثار ضارة جداً على الإنسان والمجتمعات البشرية. إذ أنهـــا سوف تخل بالنسبة الطبيعية بين الذكر والأنثى التي قدرها الله ســـبحانه وتعـــالى. بل إنني أعتقد أن هذه الطريقة سوف تكون أشد ضـــرراً في هذا الشأن من محاولات تحديد جنس الجنين بالرحم أو حـــتى خارج الرحم على نحو ما سبق بيانه وذلك لسهولتها ولتحكمها فـــي جنس الجنين قبل الحمل، وبالتالي فلو قدر لهذه الطريقة النجاح فستتجنب المرأة عمليات الإجهاض المتكررة ومن ثم يسهل شيوعها وبالتالي يزداد أثرها الضار على الإنسان والمجتمعات البشرية على نحو ما سبق ذكره.

ويتناول التالي من هذا الفصل بالإيضاح المفهوم الخاطئ الشائع لعلم الله بمـــا فـــي الأرحـــام ودراسة أسباب شيوع هذا التفسير وموقف الإسلام من هذه الأسباب.

المفهوم الخاطئ لمعنى علم الله بما في الأرحام:

قـــال الله ســـبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ***(اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَـــا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ)***[1] كما قال عز وجل: ***(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)***[2]، كذلـــك قـــال تعالى: ***(وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ)***[3]. ولقد تعلق في

---

(١) سورة الرعد، بالآية ٨.

(٢) سورة لقمان، بالآية ٣٤.

(٣) سورة فاطر، بالآية ١١.

أذهان كثير من المسلمين وغير المسلمين في الشرق والغرب بأن مراد الله سبحانه وتعالى من علمه بما في الأرحام هو أنه وحده عز وجل يعلم ما إذا كان الجنين في رحم الأم ذكراً أم أنثى. وللأسف الشديد لم يحاول أي من علماء الدين المسلمين توضيح خطأ هذا المفهوم إلا بعد أن بدأت تظهر في الأفق نتائج بعض أبحاث علماء الأجنة حول تحديد جنس الجنين.

وعلى الرغم من أن هذا التفسير هو التفسير الشائع بين العامة إلا أنه خاطئ من ناحيتين:

الناحية الأولى ـ انصراف التفسير إلى أن علم الغيب يقصد به معرفة ما إذا كان الجنين بالرحم ذكراً أم أنثى: وهذا غير صحيح إذ أن علم الله بما في الأرحام أرقى وأشمل بكثير من مجرد معرفة نوع الجنين. وسيرد إيضاح هذه الناحية بالتفصيل عند الحديث عن التفسير الصحيح.

الناحية الثانية ـ ذهب التفسير إلى أن أحداً غير الله لا يمكنه معرفة نوع الجنين في الرحم: وهذا ما لم يقصده الله سبحانه وتعالى كما سيتضح فيما بعد.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن هذا التفسير الخاطئ لمفهوم علم الله بما في الأرحام لم يكن على الإطلاق وفي أي يوم من الأيام هو تفسير المفسرين المسلمين. فلم يذكر هذا التفسير في أحد كتب التفسير على الإطلاق، سواء كانت كتب التفسير بالمأثور أو التفسير بالرأي أو التفسير بالإشارة، بل كان هذا التفسير صيغة مشوهة للتفسير الإسلامي الصحيح تناقلته للأسف الشديد الأجيال الإسلامية المتأخرة جيلاً بعد جيل حتى تعلق بأذهان المسلمين وغير المسلمين في الشرق والغرب، وللأسف الشديد توارى إلى الظل التفسير

الإســـلامي الصـــحيح الـــذي طالمـــا ذكره الفقهاء المسلمون على مر العصور وشرحوه وأكدوا عليه .. فكم من عملة رديئة طردت عملة جيدة خاصة في هذه الأيام!!.

أسباب التفسير الخاطئ لمعنى علم الله بما في الأرحام:

وفـــي تصـــورنا أن تعلق أذهان كثير من المسلمين وغير المسلمين في الشرق والغرب بهذا التفسير الخطأ يرجع إلى ثلاثة أسباب مهمة وخطيرة هي:

السبب الأول ــ حب الإنسان الغريزي للبنين:

أدى حـــب الإنســـان الغريزي للبنين وتفضيلهم على البنات أن انصرفت الأذهـــان أول ما انصرفت في فهم تفسير الآية إلى تصور أن غيب الله سبحانه وتعالى متعلق بمعرفة ما بداخل رحم الأنثى من جنين ذكر أم أنثى. إذ أن العرب في الجاهلية كانوا يكرهون أن تلد زوجاتهم البنات وذلك لأنهن رمز للضعف في مجـــتمع بني على القوة والقتال. كما كانت الأنثى عندهم رمزاً للمهانة خاصة إذا وقعـــت في الأسر وأخذت سبية. ويختلف الحال تماماً بالنسبة للذكور، إذ أن حب الإنســـان لميلاد الذكور يرجع أساساً إلى أنهم رمز القوة والسطوة والعزة لأنهم فرسان المستقبل للقبيلة الذين يزودون عنها. ولم يهتم العرب في الجاهلية بمعرفة أي مـــن الصفات الأخرى للجنين لتضاؤل أهمية ذلك بالنسبة لمعرفة جنسه من ناحية ولأنهم بما لديهم من فراسة وبما لديهم من دراية بظروف ونشأة كل بطون القبـــيلة يمكنهم أن يستشفوا الكثير حول هذه الصفات. فعلى سبيل المثال بالنسبة لمعـــرفة الصفات الجسمانية للذكر فغالباً ما يمكنهم معرفة الكثير عنها من خلال معرفتهم لصفات والديه وذلك بما عرف عنهم من فراسة. كذلك لم تتعلق أذهانهم بمحاولـــة معـــرفة مســـتقبل الذكر الذي يتوقع ميلاده على أساس أن أبناء السادة

يولــدون ســادة وأبناء العبيد يولدون عبيداً، ولا يهم أي شيء آخر بعد ذلك من حيث الصفات الخلقية إذ أن ميلاد كل طفل ذكر فيه إضافة لقوة ومنعة القبيلة.

ممــا ســبق يتبيــن أسباب الحب الغريزي للبنين خاصة بالنسبة لعرب الجاهلــية وذلك ما دفعهم إلى كره البنات. ولقد أوضح القرآن الكريم طباع أهل الجاهلية في ذلك بقوله تعالى: *(وَإِذَا بُشِّــرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِــيمٌ يَــتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي الــتُّرَابِ أَلا سَــاءَ مَا يَحْكُمُونَ)*[*]. وتدل هاتان الآيتان على الكره الشديد لعرب الجاهلــية لمــيلاد البــنات، إذ من كان يخبر بميلاد أنثى له يظل كئيباً مغموماً مهمومــاً صــامتاً من شدة ما هو فيه من الحزن، يكره أن يراه الناس. وفي هذه الحالــة إما أن يبقي الطفلة المولودة مهانة لا يورثها ولا يهتم بها، ويفضل عليها أبناءه الذكور وإما بوئدها بدفنها حية.

ونظــراً لكــره أهــل الجاهلية الشديد للأنثى على نحو ما أوضح القرآن الكــريم كان همهم الشاغل أن يعرفوا فقط ماذا سيكون جنس الجنين المولود إذا ولــد ذكر أم أنثى. ومنهم من كان يحاول التنجيم في ذلك، إذ أنه لو عرف أن ما فــي رحم زوجته أنثى لشرع في إجهاضها، وربما يكون هذا أهون عليه وعلى زوجته من أن تلد الزوجة طفلة بالفعل ويضطرون لوأدها ويعرف بذلك كثير من الــناس. إذ أن الإجهاض يمكن أن يتم في السر فلا تصيبهم أي معرة. كذلك فإن قتل طفلة مولودة مكتملة النمو ربما يكون أكثر إيلاماً من الناحية النفسية لكل من الأم والأب مــن قتل جنين لم يكتمل تخليقه بعد، إذ أن البعض ربما يكون لديهم بعــض من عاطفة الأمومة والأبوة تحول بينهم وبين وئد بناتهم، إلا أن العادات والتقاليد والعرف الجاهلي تجبرهم على ذلك.

---

[*] سورة النحل، الآيتان ٥٨، ٥٩.

ولقد أرسل الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق لينصر الأنثى وليرد لها اعتبارها سواء كانت جنيناً أو طفلة أو امرأة وذلك على نحو ما سنوضحه فيما بعد. فأصبح المجتمع الإسلامي مناخاً طيباً صالحاً لتربية البنات التربية الصالحة باعتبارها عضواً مهماً وأساسياً في المجتمع، وبدأ يتلاشى من الأذهان والقلوب كره البنات وأصبح الشغل الشاغل هو التربية الصالحة للأولاد بنات وبنين ليكونوا في المستقبل أعضاء صالحين بالمجتمع.

ونتيجة لإهمال المسلمين لتعاليم دينهم على مر العصور ونتيجة لضعف الوازع الديني لديهم تحولت المجتمعات الإسلامية إلى مجتمعات يعاني فيها الضعيف من القوي، وكثر فيها أكل الحقوق وانتشرت فيها الرذيلة والاغتصاب. وبعبارة أخرى أصبحت هذه المجتمعات الإسلامية تعيش ردة عن الإسلام نتيجة تحولها شيئاً فشيئاً إلى مجتمعات الجاهلية الأولى، سواء من حيث الفكر أم من حيث الفعل. ولقد كان من نتيجة نسيان المسلمين لمبادئ دينهم الحنيف وعدم معايشتهم لروحه السامية، ونتيجة لما دب في أذهانهم من تخلف فكري أن عادوا يكرهون إنجاب البنات على أساس أنهم مصدر قلق نفسي شديد يعاني منه الوالدان نتيجة لصعوبة تربية البنات والمحافظة عليهن في هذه المجتمعات. وتدني البعض في كرهه للبنات إلى درك أسفل من ذلك فتمنى لو يجهض زوجته الحامل إن كان في رحمها أنثى. وشيئاً فشيئاً انصرفت الأذهان إلى التفسير الخاطئ لمعنى علم الله بما في الأرحام، والذي يدعي أن مقصد الله سبحانه وتعالى هو معرفة ما إذا كان الجنين بالرحم ذكراً أم أنثى. وهكذا نسى كثير من المسلمين التفسير الصحيح لكتاب ربهم!!.. وتناسى آخرون التفسير الصحيح ولم يعودوا يرون في علم الله بما في الأرحام أكثر من نوع الجنين!!.

السبب الثاني ـ ابتعاد كثير من المسلمين عن المنابع الأصلية لدينهم الحنيف:

سـبق القول بأن هذا الجيل من المسلمين في هذا العصر من أقل الأجيال الإسـلامية درايـة ومعرفة بأمور دينهم. فكثير من المسلمين للأسف الشديد لا يحـاولون الاطـلاع علـى المصـادر الأساسية للإسلام، من قرآن كريم وسنة مطهرة، وذلك إما إهمالاً أو تجاهلاً. فقليلاً ما تجد الآن مسلماً حريصاً على تلاوة بعض من القرآن الكريم كل يوم أو حتى كل أسبوع. كما أن القليل من المسلمين مـن يحـاول الاطلاع على كتب الحديث وكتب التفسير لتنير له طريقه. بل أنه نادراً ما تجد في هذه الأيام أي من هذه الكتب في دار مسلمة.

كذلـك فـإن بعضـاً من المسلمين للأسف الشديد يقرأون القرآن الكريم والسـنة المطهـرة وفـي أذهـانهم كثـير مما استقرت عليه عقولهم من آراء وتصـورات وأفكـار خاطئة عن الإسلام. كما أن بعضهم يقرأون هذه المصادر الإسـلامية الأصلية وقد وقر في قلوبهم مشاعر متيمة بكل ما هو غربي غريب عن الإسلام. أن هؤلاء وهؤلاء عندما يقرأون القرآن الكريم أو كتب الحديث أو كتـب التفسـير يكونـون أسـرى أوهـامهم وتصـوراتهم ولا يكونـون فـي وضـع نفسـي يمكـنهم مـن تلقي نفحات الإيمان. وفي هذا المعنى يقول الله سبحانه وتعالى: ***(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَـرَوْا كُـلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)*** (*). وفـي تفسير هذه الآية يوضح ابن كثير أن الله سبحانه وتعالى يقول سأمنع فهم الحجـج والأدلـة الدالـة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن

(*) سورة الأعراف، الآية ١٤٦

طاعتي ويتكبرون على العباد بغير الحق، أي أنهم لما استكبروا بغير حق أذلهم الله المعز المذل بالجهل وافتقارهم إلى البصيرة[1].

وخلاصة القول فإن إهمال كثير من المسلمين الإطلاع على المصادر الأساسية لدينهم الإسلامي الحنيف، من قرآن كريم وسنة مطهرة، أدى في نهاية الأمر إلى تهيئة مناخ غير علمي ساعد على انتشار معان وتفسيرات خاطئة لبعض آيات القرآن الكريم ولبعض من أحاديث الرسول الكريم محمد ﷺ.

السبب الثالث ـ سريان الفكر الغربي البراجماتي بين المسلمين:

سبق الحديث في الفصل الأول عن أن من أسباب التناقض المفتعل بين الدين والعلم ابتعاد العلماء المسلمين بالتخصصات العلمية المختلفة عن الدين، والذي كان من بين عوامله نشأة كثير من هؤلاء العلماء في مدارس فكرية غير إسلامية. إذ تأثر كثير من أبناء المسلمين ممن تخرجوا في المدارس الغربية بالمدنية الغربية واعتقدوا خطأ بأن تقدم الشعوب الإسلامية مرهون بالأخذ بالاتجاهات الاجتماعية التي أخذت بها الشعوب الغربية، ومن بين هذه الاتجاهات الغربية الاتجاه البراجماتي[2].

ومضمون هذا الاتجاه هو عدم الاعتراف بالقدرة على التطبيق إلا للاتجاهات والأفكار التي تشغل حيزاً في نطاق العلوم التجريبية أو تلك الآراء والمضامين وثيقة الصلة بالإنسان ومجتمعه، والتي لها آثار جوهرية على العلاقات الاجتماعية للأفراد. أي أن الاتجاه البراجماتي لا يلقي بالاً بما لا يمكن

---

[1] إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، الجزء الثامن، ص ٢٤٨.

[2] البراجماتية Pragmatism وتعرف بفلسفة الذرائع وهي فلسفة أمريكية تتخذ من النتائج العملية مقياساً لتحديد قيمة الأفكار الفلسفية.

إخضـــاعه للتجربة العلمية. فأي شيء لا يمكن إثباته في المعمل يكون وفقاً لهذا الاتجاه مجرد فكر نظري ليس له أي أهمية تطبيقية.

ولقد انسحب هذا الاتجاه البراجماتي في التفكير إلى تفسير بعض ما جاء بالقـــرآن الكريم. ونسى أبناء المسلمين المستغربين أو تناسوا أن قدرة الله وعلمه لا تحدهـــا حدود معملية وأن هذه القدرة الإلهية تسيطر على الكون كله ذرة بذرة ومجرة بمجرة، وذلك بصرف النظر عن قدرة البشر على إثبات آثار هذه القدرة أو أي بعـــد من أبعادها بإجراء التجارب في المعمل. ومن الأمثلة التي ألقى فيها الفكـــر البراجماتي بظلاله على تفسير بعض ما جاء بالقرآن الكريم ما تعلق بعلم الله بمـــا فـــي الأرحام. فطالما أن البراجماتيين لا يمكنهم إجراء تجارب معملية توضح لهم مستقبل الجنين وتحديد ما إذا كان هذا الجنين سيكون لإنسان شقي أم ســـعيد مثلاً، أو غير ذلك على نحو ما سبق ذكره، فقد انصرفت أذهانهم إلى فهم مـــا يمكـــن لهـــم محاولة إدراكه أو الكشف عنه في المعمل وهو جنس الجنين، فـــراحوا يحصـــرون تفكيرهم في تفسير علم الله بما في الأرحام على أساس أن القصد منه معرفة ما إذا الجنين سيكون لطفل ذكر أم لطفلة أنثى.

موقف الإسلام من التفسير الخاطئ لعلم الله بما في الأرحام:

فيما يلي بيان لموقف الدين الإسلامي من أسباب التفسير الخاطئ لعلم الله بما في الأرحام في النقاط التالية:

أولاً ـ الإسلام يرفض تفضيل البنين على البنات:

يهـــتم الإســـلام ببناء المجتمع على نحو قوي متماسك، بحيث يتيح لكل عضو فيه أن يقوم بأداء التكاليف الإيمانية كخليفة لله سبحانه وتعالى في الأرض. فـــيقوم بإعمارهـــا على نحو يرضي الله. والمجتمع صالح ما صلح أفراده رجالاً

ونســـاء. فإذا ما فسدوا فسد المجتمع وطمست معالمه وتبدلت أحواله إلى ضعف من بعد قوة وإلى سيئ من بعد حسن.

ومـــن هـــذا المـــنطلق نظـــر الإســـلام للمرأة على أنها نصف المجتمع إذ أنهـــا أم الـــرجل أو شـــقيقته كمـــا أنها زوجته أو ابنته، فرد إليها اعتبارها علـــى نحـــو يمكـــنها مـــن أداء دورها الفاعل جنباً إلى جنب مع الرجل لتكمله ولـــيكملها. ويختلف الإسلام في ذلك عن كل ما سبقه من أديان وعقائد وفلسفات. فلـــم تزد المرأة في العهود اليونانية أو الرومانية عن كونها أمة مملوكة في بيت ولـــيها أو أبيها أو زوجها. فلم يكن من حقها التملك مثلاً، إذ كان الرجل هو كل شـــيء فهـــو الذي يتملك كل شيء حتى المرأة نفسها. كذلك فقد عانت المرأة في عصر الجاهلية المظلم أشد المعاناة. فكم وئدت الإناث في مهادها وكم اغتصبت وكم ظلمت وكم أنكر عليها حق العيش الكريم.

ولقـــد رد الإســـلام للمرأة حقها وحريتها وساوى بينها وبين الرجل في الحقـــوق والواجبات المعنوية والمالية ما عدا بعض الأمور الجبلية التي يقتضيها الفرق الواضح بين طبيعتها وطبيعة الرجل. فالمرأة أمام التكاليف الشرعية مثلها مـــثل الـــرجل سواء بسواء. إذ أنها مطالبة بالإيمان بالله وبكتبه وبرسله كما أنها تصلي وتدفع زكاة مالها وتصوم وتحج البيت مثلها في ذلك مثل الرجل. كما أن لهـــا الحق في أن تبيع وتشتري مثل الرجل أيضاً. كذلك من حقها أن تعمل عملاً يتناسب مع طبيعتها إذا اضطرتها الظروف لذلك.

والقـــرآن الكريم زاخر بآيات القرآن التي تكرم المرأة وتوصي بها خيراً ويكفـــي أن بالقـــرآن الكريم سورة تسمى سورة النساء تحتوي على مائة وست وســـبعين آية تشتمل على أحكام النساء من حيث الحقوق والواجبات وغير ذلك ممـــا يرتـــبط بهن. كذلك فهناك سوراً أخرى احتوت على كل ما يهم المرأة في

علاقتها مع الرجل بحيث يحفظ لها كيانها ووضعها كإنسان خلقت لتشارك الرجل في إعمار الأرض.

كذلك لم يفرق الله العادل الحكيم بين الأنثى والذكر من حيث الثواب والعقاب، في الآخرة، بل ترك الفيصل في ذلك لعمل كل منهم وليس لجنسه إذ قال سبحانه وتعالى في محكم آياته: *(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً)*[1].

مما تقدم يتبين أن الإسلام يرفض رفضاً قاطعاً تفضيل البنين على البنات من منطلق اختلافهم في الجنس، بل إن الإسلام جعل الرجل قواماً على المرأة ليحميها ولا يئدها وليصون حقها ولا يبدده وذلك بما وهبه الله سبحانه وتعالى من مقومات لذلك. وفي هذا تكريم أيما تكريم للمرأة ...إذ حولت المشيئة الإلهية ضعف المرأة بالنسبة للرجل إلى قوة في مواجهته فيحميها الرجل لضعفها بقوته!!.

ثانياً ـ الإسلام يحث على التفقه في الدين.

يحث الدين الإسلامي عباد الله جميعاً على قراءة القرآن الكريم والاطلاع على كتب الأحاديث النبوية الشريفة لتدبر معانيها ومعرفة ما تشتمل عليه من توجيهات تنير للبشرية طريقها في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ففهم الإنسان المسلم لدينه يجعل منه إنساناً صالحاً يعمل بتعاليمه ومنهجه، إذ لابد لمن يعمل أن يعلم أولاً. ومما يدل على أن الله سبحانه وتعالى يحث عباده على قراءة القرآن الكريم وفهمه وتدبر معانيه قوله تعالى: *(قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)*[2]. وتدل هذه الآية الشريفة على ضرورة استيعاب الحكم الإلهية والمقاصد الشرعية لكل ما جاء بالقرآن الكريم، وهذا يتطلب بشراً يتفقهون، أي لهم عقول وقلوب متفتحة لا تحركها النزعات أو

---

[1] سورة النساء، الآية ١٢٤.

[2] سورة الأنعام، بالآية ٩٧.

الأحقاد فيسهل استيعابها للحق وتلقيها للضياء. إذ أن من تحركه الأهواء والأحقاد لا يمكن له التعرض للنفحات الإيمانية والاتساق مع مقاصد الله سبحانه وتعالى من شريعته، فمثل هؤلاء أعمى الله بصيرتهم فختم على أسماعهم وأبصارهم وينطبق عليهم قول الحق: *(وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ)*(*).

وليتسنى خلق المجتمع الإسلامي الصحيح الذي يفهم ويعمل بشريعة الله ومنهاجه وجب العناية بتربية الأبناء التربية الإسلامية الصحيحة منذ نعومة أظافرهم لتطبع قلوبهم على حب الله وتفهم تعاليمه ليكونوا في منأى عن الأفكار والمفاهيم الخاطئة عن الإسلام فلا يتأثرون بالمستورد والدخيل من الأفكار والتفسيرات الخاطئة أو المغرضة للقرآن الكريم والسنة المطهرة.

ثالثاً ـ الإسلام يدحض الفكر البراجماتي:

يرفض الإسلام الفكر البراجماتي ويدحضه، على أساس أنه لا يعترف إلا بما يمكن رصده في المعمل. هذا الفكر يجانبه الصواب لاعتبارين أساسيين. فمن ناحية يؤدي الأخذ بهذا الاتجاه إلى صرف النظر عن جانب كبير من الأفكار والاتجاهات القيمة التي يعتقد في سلامتها طالما أنه لا يمكن إخضاعها للتجربة العملية في الوقت الحالي وذلك إلى أن تتطور وسائل الاختبارات المعملية وأدواتها وترقى لدرجة تمكنها من إجراء الاختبارات المعملية على هذه الأفكار لتقبل أو لترفض. فكثير من الأفكار العلمية القيمة لا تسلم نفسها بسهولة للتحليل في المختبرات، خاصة تلك الأفكار وثيقة الصلة بالإنسان ومجتمعه مثل كثير من تلك التي يتضمنها علم النفس وعلم الاجتماع وغيرها؛ لذلك فالأخذ بالاتجاه البراجماتي في هذه الحالة معناه ببساطة شديدة تأجيل الأخذ بهذه الأفكار العلمية القيمة إلى أجل غير مسمى وذلك وفقاً لأكثر التقديرات تفاؤلاً!!.

(*) سورة التوبة، بالآية ٨٧.

ومن ناحية أخرى فإن هذا الاتجاه يضيق متسعاً!!. إذ يستبعد نهائياً كثيراً مـن المضامين الدينية التي تصلح أساساً لبناء أرقى المجتمعات الإنسانية بحجة عـدم قابليـتها للاختـبار في المعمل. ونسى أصحاب هذا الاتجاه أن المضامين الأخلاقـية والتشـريعية لهـذه الأديـان كانـت السبب المباشر لبناء كثير من الحضارات التي نشأت عليها ثم ذهبت بذهابها.

وبالنسـبة للديـن الإسـلامي بالذات فهو يدحض هذا الفكر البراجماتي الغربي ذات الأفق الضيق الذي لا يرى قدرة الله سبحانه وتعالى وآياته في الآفاق وفـي الأنفـس... وكـيف يراها وقد حصر أصحابه أنفسهم في دائرة الماديات المـنظورة فقـط تاركيـن وراءهم العالم غير المنظور رغم اتساعه ومدلولاته وأهميـته غير المتناهية. ولعل في قصة ميلاد عيسى وأمه العذراء مريم عليهما السـلام خـير دليل على عجز الاتجاه البراجماتي وفشله في مسايرة المعطيات القيمة للأديان. إذ كيف يمكن للفكر البراجماتي أن يخضع للتحليل المعملي وضع العذراء مريم عليها السلام لوليد هو عيسى عليه السلام دون أن يمسسها بشر؟.. أي كيف تحمل أنثى بدون ذكر؟!!.

وحقيقة فإن موضوع الولادة بدون أب partheno genesis لا ينبغي أن يخضـع للتجربة في المعمل. فالله سبحانه وتعالى قد جعل التزاوج سنته الكونية فـي عباده من البشر. إذ أن التزاوج بين الذكر والأنثى سبب التناسل. وفي ذلك يقـول الله عز وجل: ***(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِيـنَ وَحَفَدَةً)***(*). إلا أن الله القادر المهيمن يخرق سنته وقوانينه في الكون وفق مـا يشـاء بحيـث يبدو الإعجاز الإلهي في أروع صورة. فقد خلق الله الخلاق العظـيم آدم علـيه السـلام بدون أب أو أم. وخلق حواء عليها السلام بدون أم

(*) سورة النحل، بالآية ٧٢.

يتضـح هـذا من قوله تعالى: *(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً)*[١]. إذ تؤكد هذه الآية الكـريمة أن الله سبحانه وتعالى بدأ الخلق بنفس واحدة هي آدم عليه السلام، ثم خلـق له زوجـة هي حواء عليها السلام من ضلعه الأيسر من خلفه. أي أن آدم علـيه السـلام خلق بدون أب وبدون أم. بينما خلقت حواء عليها السلام من أب وبـدون أم. وخلـق عيسـى عليه السلام من أم وبدون أب. وخلق محمداً عليه الصـلاة والسـلام بأب وبأم. لذا فلا عجب في خلق عيسى عليه السلام من أمه العـذراء مـريم عليها السلام دون أن يمسسها بشر. وينبغي على البشر جميعاً الإيمان بذلك دون التقيد بإمكانية إثباته في المعمل. إذ أن هذا النوع من الخلق هو مـن مظاهر طلاقة المشيئة والقدرة الإلهية. وليس للبشر حياله إلا أن يؤمنوا به. فخلـق عيسى عليه السلام بدون أب هو بلا شك على الله هين. ولم لا وقد خلق الله القـادر آدم علـيه السـلام مـن قـبل بـدون أب أو أم وهذا يتطلب قدرة أكبر. وفي هذا المعنى يقول الله سبحانه وتعالى: *(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَـهُ مِـنْ تُـرَابٍ ثُـمَّ قَـالَ لَـهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)*[٢]. ويوضح الله سبحانه وتعالى أن هذا هو قول الحق في عيسى عليه السلام الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه.

وحقـيقة فـإن الله سبحانه وتعالى بكلمته كن التي ألقاها إلى مريم عليها السلام يمكن أن تفعل أي شيء يريده الله عز وجل فتخرق نواميس الحياة، إذ أن أمـره سبحانه بين الكاف والنون. فهذه الكلمة تحدث تغييراً في التركيب الوراثي لبويضة العذراء مريم فتحولها إلى بويضة مخصبة، أي تحولها إلى نطفة أمشاج بـدون رجل فتحمل في جنين مكتمل هو المسيح عليه السلام.. ويتضح هذا في

---

[١] سورة النساء، بالآية ١

[٢] سورة آل عمران، الآيتان ٥٩، ٦٠.

قوله تعالى: *(إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ)*[1]. كذلك قال عز وجل في نفس الموضوع: *(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)*[2]. وواضح أن قدرة الله العزيز في هذا الشأن ليس لها حدود ومن ثم فلا يمكن حصرها في أنابيب اختبار بالمعمل لمعرفة ما إذا كانت ممكنة الحدوث على هذا النحو أم لا.. إذ أنه من المستحيل إخضاع قوة الجبار القاهر فوق عباده لمعمل يصنعه هؤلاء العباد. فقدرة الله تخضع كل شيء ولا تخضع لشيء فسبحانه صاحب صفات الجمال وصاحب صفات الجلال!!.

ويتجلى فضل القرآن الكريم على معتنقي المسيحية في تبرئته لساحة العذراء مريم عليها السلام، إذ قال الله الذي خلق فأحسن الخلق على لسانها عليها السلام في قرآنه المجيد: *(قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)*[3]. وبذلك يتضح فضل القرآن الكريم؛ إذ أعطى وبحق ولأول مرة شهادة ميلاد صحيحة لنبي الله عيسى ابن مريم عليهما السلام وذلك بعد أن فشل المسيحيون البراجماتيون بطبيعة الحال في إثبات صحة ميلاده بدون أب في المعمل!!.

حقيقة فإن إثارة هذا الموضوع يسقط وإلى الأبد الاتجاه البراجماتي في هوة سحيقة تسمه بالكفر وتقضي عليه. وإلا فعلى هؤلاء البراجماتيين الغربيين ألا يعتنقوا المسيحية حتى يثبتوا لأنفسهم.. ولأنفسهم فقط صدق عذرية من اصطفاها ربها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين!!.

---

[1] سورة آل عمران، بالآية ٤٥.

[2] سورة النساء، بالآية ١٧١.

[3] سورة آل عمران، الآية ٤٧.

وعلـــى الرغم من الفشل الذريع لهذا الاتجاه البراجماتي، فقد تسرب مع كثير غيره من الاتجاهات إلى أذهان وأفكار كثير من أبناء المسلمين الذين درسوا في هذه المجتمعات وعاشوا بين أفرادها فترة طويلة من الزمان لدرجة أن أصبح هـــذا الاتجاه هو المحرك لعقولهم الباطنة فأصبحوا يرفضون أي شيء لا يمكن إخضاعه للتحليل في المعمل. ونتيجة لذلك فقد رفضت عقولهم تلك الأشياء التي تتعلق بما هو غير منظور أو تلك الأشياء التي لا يمكن رؤيتها رؤى العين، ومن ذلـــك بطبـــيعة الحـــال ما سيكون عليه مستقبل الجنين في رحم أمه بعد ولادته. فطالمـــا لا يـــزال جنيناً فلا يمكن لأحد أن يعرف ما إذا كان هذا الجنين سيكون شـــقياً أم سعيداً مثلاً. إذ أن المستقبل لا يمكن إخضاعه للتجربة في المعمل. وما يمكن أن يحاولوا فيه هو إجراء التجارب المعملية على الجنين لمعرفة جنسه هل هـــو ذكر أم أنثى؟!!. ولقد ترتب على ذلك أن فهم هؤلاء المستغربون من أبناء المسلمين التفسير الخاطئ للقرآن الكريم في هذا الموضوع على أساس أن المراد بعلـــم الله بما في الأرحام هو فقط علم ما إذا كان الجنين ذكراً أم أنثى. واختفى بالتالي التفسير الصحيح للقرآن الكريم في هذا الموضوع، بل ربما لم يتبادر إلى أذهـــانهم. وبطبيعة الحال انتقل التفسير الخطأ لعلم الله بما في الأرحام من هؤلاء المســـتغربين الجهلاء إلى المجتمعات الغربية التي يعيشون بها فاستقر في أذهان هـــذه المجتمعات أن المقصود بالغيب في علم الله سبحانه وتعالى بما في الأرحام هـــو تحديد جنس الجنين... وهذا الخطأ بطبيعة الحال كان نتيجة أن الجاهل علم من لا يعلم وهل هناك ما هو أجهل من ذلك؟

الفصل الثاني

المفهوم الحقيقي لعلم اللّٰه بما في الأرحام



الفصل الثاني

المفهوم الحقيقي لعلم الله بما في الأرحام

أوضحنا بالفصل السابق أبعاد وأسباب الجدل الكبير الذي يدور في السنوات الأخيرة حول المفهوم الحقيقي لعلم الله بما في الأرحام، على أثر ما تم تحقيقه من خطوات علمية في مجال تحديد جنس الجنين. ولقد دار هذا الجدل ولا يزال بين معسكرين اثنين أحدهما غربي ويضم في نفاياته المستغربين من أبناء المسلمين وكثير من الملاحدة الشرقيين. وهذا المعسكر معروف بعدائه للإسلام والحقد عليه، ولذلك اتخذ من الخطوات العلمية التي تحققت في علم الأجنة سلاحاً يشهره في وجه الإسلام والمسلمين على أساس أن علم ما بالأرحام لم يصبح مقتصرا على الله سبحانه وتعالى وحده وإنما يشاركه في ذلك الإنسان، كما يتصورون، وبالتالي يطعنون في سلامة القرآن الكريم وفي صحة الرسالة المحمدية.

والمعسكر الآخر هو المعسكر الإسلامي الذي انقسم بدوره إلى طائفتين تمثلت أولاهما في أفراد مؤمنين بالله وبرسوله لم يهتز إيمانهم قيد أنملة، سواء منهم من كان موقفه هذا راجعاً إلى فهم صحيح لمراد الله سبحانه وتعالى من آياته، أو كان راجعاً إلى رفضه لنتائج الخطوات العلمية التي تم تحقيقها وعدم تصديقه لها. ولقد تمثلت الطائفة الثانية من المعسكر الإسلامي في أفراد قلائل من ضعاف الإيمان الذين اهتز إيمانهم للأسف الشديد من جراء هذه الفرية الباطلة.

وواضح أن السبب في هذا الجدل المفتعل حول حقيقة علم الله بما في الأرحام واختلاف مواقف المسلمين حياله، سواء من سرى الشك إلى قلبه أو من

رفض نتائج الأبحاث حول هذا الموضوع، يرجع إلى عدم وضوح المفهوم الحقيقي لعلم الله بما في الأرحام. فبصرف النظر عن صحة هذه الأبحاث في علم الأجنة حول هذا الشأن أو عدم صحتها، وبصرف النظر كذلك عن مدى دقة نتائج هذه الأبحاث بافتراض صحتها، فإن كل هذا لم يكن ليحرك من المشاعر الإسلامية ساكناً لو كان المفهوم الحقيقي لعلم الله سبحانه وتعالى بما في الأرحام واضحاً في أذهان المسلمين.

ولقد حاول كثير من علمائنا الأفاضل المتخصصين في علوم الدين الإسلامي بصفة عامة، والمتخصصين في علم تفسير القرآن الكريم بصفة خاصة أن يوضحوا المعنى الذي قصده الله العليم الحكيم في القرآن الكريم عندما قال تعالى: ***(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)***(*). إلا أن محاولاتهم هذه على الرغم من إخلاصها لم تنجح في أن تكشف الغمة التي أصابت كثيراً من المسلمين نتيجة لذلك. أضف إلى ذلك فإن محاولات هؤلاء العلماء لم تنجح على الإطلاق في إقناع الحاقدين من العلماء الغربيين والمتعصبين لطوائفهم الدينية بسلامة آيات القرآن الكريم وعدم تعارضها مع ما نشر من نتائج الأبحاث في علم الأجنة.

وفي رأينا أن ضعف نتائج محاولات علماء المسلمين الأفاضل في إقناع الكثيرين من المسلمين وغيرهم بالتفسير الصحيح للقرآن الكريم حول علم الله سبحانه وتعالى بما في الأرحام راجع إلى سبب رئيسي هو افتقارهم إلى دليل يؤكد صحة تفسيرهم وحقيقة فالأمر ليس هيناً، إذ أنه متعلق بالقرآن الكريم، كما أن له أبعاداً كثيرة تتعلق بالتكييف الشرعي لنتائج الأبحاث الأخيرة في علم الأجنة.

ويقدم هذا الفصل دراسة لحكمة إخفاء الله علمه بما في الأرحام عن عباده، كما يقدم دراسة مستفيضة للمفهوم الحقيقي لهذا العلم.

(*) سورة لقمان، بالآية ٣٤.

مفهوم علم ما في الأرحام:

يقصد بعلم الله العليم الخبير بما في الأرحام (uterine) wombs علم كل شيء عن الأجنة بها سواء كانت هذه الأشياء مادية أو معنوية أو روحية وسواء كانت هذه الأجنة بالرحم أو بعد ميلادها في الحياة الدنيا أو بعد وفاتها وانتقالها للحياة الآخرة(*)،وسوف يتم دراسة ذلك وإثبات صحته بالتفصيل في الأجزاء التالية من هذا الكتاب:

حكمة إخفاء الله علم ما في الأرحام:

وتتضح حكمة الله العليم الخبير في انفراده وحده بعلم ما في الأرحام في النقاط الثلاث التالية:

أ - ضمان استمرار حركة الحياة.

وتتجلى حكمة الله سبحانه وتعالى بعباده في إخفائه علم ما في الأرحام في ضمان استمرار حركة الحياة. فالأب الذي يعرف على وجه اليقين أن ما برحم زوجه سيكون ابناً عاقاً أو ابناً فاشلاً في حياته في المستقبل سيحاول على الأرجح إجهاض زوجته. وعلى نفس النحو ستتصرف الأم إذا ما عرفت أنها حامل في ابن سيكون كافراً بالله أو أن هذا الابن سيقتلها وسيقتل أبيه مثلاً. في جميع هذه الحالات وفي غيرها سيحاول أحد الوالدين أو كلاهما التخلص من جنينهما أو وأده طفلاً في المهد!! .. ولعل في قصة موسى والخضر عليهما السلام مثالاً على ذلك. إذا أوحى الله سبحانه وتعالى إلى عبد من عباده، أتاه

(*) جاء في تفسير معاني القرآن الكريم لعبد الله يوسف علي، من مطبوعات رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر، ص ١٠٨٩:

The mention of wombs brings in the mystery of animal life, Embryology, sex, and a thousand other things. Who can tell - to take man alone – whether the child conceived is male or female, how long it will remain in the womb, whether it will be born alive, what sort of new individual it will be, - a blessing or curse to its parents, or society?

رحمـــة من عنده وعلمه من لدنه علماً، وهو الخضر عليه السلام بأن يقتل الغلام الذي لقيه هو وموسى عليهما السلام أثناء انطلاقهما في رحلتهما خشية أن يرهق هـــذا الغلام أبويه المؤمنين بطغيانه وكفره. وكان هذا بالطبع نتيجة لما أعلمه الله العليم الخبير لعبده بشأن هذا الغلام. وكان هذا التصرف مثار استنكار من موسى علـــيه السلام لأنه لم يكن قد أحيط بهذا العلم من ربه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ***(فَانْطَلَقَـــا حَـــتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَـــيْئاً نُكْـــراً)*** [1]، كمـــا قال تعالى: ***(وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً)*** [2]. كذلك في قصة فرعون وموسى دليلاً آخر على حكمة الله الحكـــيم فـــي إخفـــاء علم ما في الأرحام عن عباده لضمان استمرار حركة الحـــياة. إذ تنبأ العرافون لفرعون بأنه سيخرج ولد من ذرية بني إسرائيل يكون ســـبباً فـــي ضـــياع ملكه، وكان أن عمد إلى ذبح جميع مواليد بني إسرائيل من الذكـــور عامـــاً وتـــركهم عاماً تجنباً لذلك، ولولا عناية الله سبحانه وتعالى خير الحافظيـــن لرســـوله موسى عليه السلام لقتل وفي ذلك يقول الله تعالى في كتابه الكـــريم: ***(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)*** [3].

وحقيقة لو أطلع الله العليم عباده على علم ما في الأرحام لاهتزت حركة الحياة، إذ أن قتل ما في الأرحام أو وأدها في المهد يتعارض مع الحكمة الإلهية في أن الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء ثواباً كان أو عقاباً. إذ أن قتل عناصر الخير لأجنة عناصر الشر أو وأدها في المهد أو قتل عناصر الشر لأجنة عناصر الخير، فيه تعارض كبير مع هذه الحكمة الإلهية.

---

(١) سورة الكهف، الآية ٧٤.

(٢) سورة الكهف، الآية ٨٠.

(٣) سورة البقرة، الآية ٤٩.

ب- رحمة الله بعباده:

كذلك تتجلى رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده في إخفاءه علم ما في الأرحام. إذ لا يمكن تصور شعور أحد الوالدين أو كلاهما عند اضطرارهما لقتل ابنهما جنيناً كان أو طفلاً كما في المثال السابق رحمة به وبهما!!. كذلك لا يمكن تصور تصرف كثير من أفراد المجتمع حيال طفل عُرف على وجه اليقين بأن مستقبله مرموق. في هذه الحالة سيكثر حول هذا الطفل ومنذ صباه كثير من المنافقين، وفي هذا إفساد له أيما إفساد فيشب صاحب سلطان فاسد مما يجعله نقمة على قومه ومرؤوسيه بدلاً من أن يكون رحيماً بهم.

كذلك فإن تدليل هذا الطفل ذي المستقبل المرموق سيكون في كثير من الأحوال على حساب رفاقه من الأطفال ذوي المستقبل المتواضع أو البسيط. إذ سيتركون في الغالب الأعم يواجهون الوحدة والمعاناة وعدم الاهتمام، وهذا ما لا يرضاه الله سبحانه وتعالى لعباده رحمة بهم.

ج- دعم مبدأ الأخذ بالأسباب:

وأخيراً يمكن القول بأن إخفاء الله سبحانه وتعالى عن عباده علم ما في الأرحام فيه دعم لمبدأ الأخذ بالأسباب. إذ لو فرض أن طفلاً قد عرف أن مستقبله مرموق لا محالة وآخر عرف أن مستقبله مظلم لا محالة فإنهما غالباً ما يعزفان عن الأخذ بالأسباب!!. فسيعزف الطفل الأول عن العمل والاجتهاد لأنه قد ضمن مستقبله وسيعزف الثاني يأساً من هذا المستقبل. كذلك لو تصورنا أن شخصاً ما عرف أنه سيدخل الجنة في الآخرة برحمة ربه، فربما بتقاعس عن عبادة ربه في حياته الدنيا وقد لا يعمل بعمل أهل الجنة في بعض الأحيان وهذا فيه إفساد للمجتمع. ومن ناحية أخرى لو أن شخصاً ما عرف أن مثواه النار، فإنه ربما يعمد إلى الانغماس في الشر والرذيلة ليأسه من مغفرة الله وهذا فيه ضرر كبير بالمجتمع.

علم الله بما في الأرحام يشتمل على علم كل ما في الأرحام:

ولعل بداية الخطأ في تفسير علم الله بما في الأرحام كانت في المنظور الضيق الذي نظر من خلاله كثير ممن حاولوا دراسة هذا التفسير. إذ انحصر تفكيرهم في جزئية صغيرة جداً من هذا العلم ألا وهي ما يحمله الرحم من جنين. وليت الأمر اشتمل على معرفة كل شيء حول هذا الجنين، بل إنهم ذهبوا بفكرهم الضيق كذلك إلى جزئية صغيرة جداً مرتبطة بهذا الموضوع وهي تلك المتعلقة بجنس الجنين!!. وحقيقة الأمر أن الله سبحانه وتعالى لو أراد بما في الأرحام الجنين فقط لذكر ذلك صراحة في القرآن الكريم ولم يطلقه، إذ إن هذا هو الأسلوب السامي لكتاب الله عندما يكون الحديث متعلقاً بشيء محدد بذاته. لكن الله تعالى قال: *(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)*[1] ولم يقل ويعلم من في الأرحام مثلاً. ولبيان المفهوم الصحيح حول علم الله بما في الأرحام ينبغي بداية الإقرار بأن علم الله بما في الأرحام يشتمل على علم كل شيء بالأرحام وليس العلم بالأجنة في الأرحام فقط.

وللتدليل على أن علم الله بما في الأرحام لا يقتصر فقط على الجزئية الصغيرة المتعلقة بمعرفة جنس الجنين نضرب مثالاً على ذلك بعلم الله بما في السماوات وما في الأرض. فالله سبحانه وتعالى بقوله في كتابه الحكيم: *(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)*[2]، فهل يمكن لمفسر ما أن يقول إن المقصود بعلم الله بما في السماوات هو أن الله سبحانه وتعالى عنده علم النجوم والقمر فقط على أساس أن أغلب ما ينصرف إليه ذهن الإنسان في هذه الحالة هو ما تحتويه السموات من نجوم وقمر لأن هذه الأشياء هي ما يراها الإنسان في السماء؟. وهل

---

(1) سورة لقمان، بالآية ٣٤.

(2) سورة الحجرات، بالآية ١٦.

يمكن لمفسر ما أن يقول إن المقصود بعلم الله بما في الأرض هو علم الله بالإنسان فقط؟!!. واضح أن القول على هذا النحو يجانبه الصواب. إذ ضيق كثيراً من أمر فيه متسع. فعلم الله سبحانه وتعالى بما في السماوات يشتمل على علم كل شيء بها، ما عرفناه وما لم نعرفه. فعلى سبيل المثال لا الحصر يشتمل علم الله بما في السماوات على معرفة كل شيء يتعلق بالمجرات والنجوم والشموس ومجموعاتها وما تحتويه من كواكب وأقمار وجسيمات، وكذا معرفة أحوال أهل السموات جميعاً ما نعرفه منهم وما لا نعرفه وعلاقة كل هذا وذاك ببعضه البعض وغيره مما لا يمكن لعقل الإنسان أن يحصره. كذلك فعلم الله سبحانه وتعالى بما في الأرض يشتمل على معرفة أحوال كل شيء بها سواء كان كائناً حياً أو جماداً. فبالنسبة للكائنات الحية يشتمل هذا العلم على معرفة كل شيء يتعلق بالإنسان وسائر الحيوانات والطيور والحشرات والجراثيم والنباتات وغيرها. وتمتد هذه المعرفة بحيث تشتمل على كل شيء يتعلق بمختلف هذه الكائنات على ظهر الأرض أو في باطنها أو في مياهها سواء منهم من يمشي على بطنه أو يمشي على رجلين أو يمشي على أربع. كذلك يشتمل هذا العلم على ما يوجد على ظهر الأرض أو في مياهها، من نباتات سواء كانت زرعاً أو زيتوناً أو نخيلاً أو أعناباً، وبالنسبة للجماد فيشمل علم الله عز وجل على كل ما بها من معادن وصخور وجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. وفي نفس الوقت يشتمل علم الله بما في الأرض على كل المخلوقات الأخرى التي لا نراها، مثل الملائكة والجان والشياطين، وغير ذلك مما لا تعلم من خلق الله.

يتبين مما سبق أن المقصود بعلم الله سبحانه وتعالى بما في السماوات وما في الأرض هو العلم الإلهي الكامل والشامل لكل ما هو موجود فيهما وبالتالي لا يمكن قصر هذا العلم على معرفة أحوال شيء واحد فقط بأي منهما. وبنفس

المنطق السابق يمكن القول بأن المقصود بعلم الله سبحانه وتعالى بما في الأرحام هو العلم الإلهي الكامل والشامل لكل ما هو موجود بالأرحام، ولا يقتصر فقط على معرفة جنس الجنين بهذه الأرحام. فعلى سبيل المثال يمتد علم الله بما في الأرحام ليشتمل على كل من الأبعاد التالية:

أولاً ــ العلم بالإمكانيات الحالية والمستقبلية للأرحام على الإنجاب:

يشتمل علم الله العليم بما في الأرحام على معرفة كل ما يعلق بهذه الأرحام من حيث تكوينها، سواء تعلق ذلك بخلاياها وأنسجتها أو تعلق بإفرازاتها وأنزيماتها، وهو ما لا يعرف عنه العلم البشري إلا قليلاً. كذلك يشتمل علم الله الخالق بما في الأرحام على معرفة قدرة هذه الأرحام على الإنجاب، بل ويتعدى ذلك إلى معرفة ما إذا كانت هذه الأرحام ستنجب بالفعل أم لا بصرف النظر عن قدرتها على الإنجاب. وفيما يلي توضيح ذلك وفقاً للحالتين المختلفتين المحتملتين للأرحام، وهما كون الرحم سينجب بالفعل وكون الرحم لن ينجب، لبيان شمول وكمال علم الله بما في الأرحام من ناحية ومحدودية علم الإنسان ونقصه في هذا الموضوع من ناحية أخرى.

أ- العلم بأن الرحم سينجب بالفعل:

ويشتمل علم الله سبحانه وتعالى على وجه اليقين على معرفة أن رحم امرأة ما ذا قدرة على الإنجاب. ليس هذا فحسب بل إن علم الله يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ليقرر بشكل قاطع أن هذا الرحم القادر على الإنجاب سينجب بالفعل أم لا، لأن الله يعلم ما إذا كانت هذه المرأة ستتزوج أم لا كما يعرف كل شيء عن هذا الزوج وواضح مدى شمولية علم الله سبحانه وكماله فيما يتعلق بما في الأرحام وذلك على غير الحال بالنسبة للعلم البشري الذي قد يتوصل إلى استنتاج أن رحم أنثى ما ذو قدرة على الإنجاب إلا أن استنتاجه هذا ليس مؤكداً

بل هو استنتاج ظني ويظل كذلك إلى أن تتزوج هذه الأنثى وتنجب بالفعل. فإذا لم تتزوج هذه الأنثى فلا يمكن على الإطلاق للعلم البشري القطع الحاسم بقدرة هذا الرحم على الإنجاب. كذلك لو افترضنا جدلاً أن العلم البشري يمكنه القطع الحاسم بقدرة رحم ما على الإنجاب فإنه من المستحيل على هذا العلم الجزم بأن هذا الرحم سينجب بالفعل... إذ قد لا تتزوج المرأة، أو لا يمسها بشر، على الإطلاق، وإذا تزوجت فربما ماتت قبل الحمل أو نحو ذلك!!.

ب- العلم بأن الرحم لن ينجب بالفعل:

كذلك يشتمل علم الله سبحانه وتعالى على وجه اليقين على معرفة أن رحم امرأة ما لا ينجب... وهذا أمر طبيعي، إذ أن الله هو الذي خلق هذه المرأة على هذا النحو ولم يترك سبحانه وتعالى أي شيء للصدفة أو للظروف وهذا ما جاء في قوله تعالى: ***(أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)*** (*) كذلك لا يتوقف هذا العلم الإلهي عند هذه المعلومة فقط، بل يتعدى ذلك ليشتمل على معرفة ما إذا كان هذا الرحم الذي لا ينجب يمكن علاجه بالعلم البشري المحدود أم لا، وإن كان كذلك فهل سيتم الشفاء بالفعل أم لا...... فربما لا تحاول هذه المرأة العلاج لدى الأطباء مثلاً. كذلك يشتمل علم الله بما في الأرحام على معرفة ما إذا كان هذا الرحم سيحمل بالفعل أم لا، إذ ربما لا تتزوج هذه المرأة أو ربما يحدث لها أي شيء يمنع حملها بعد زواجها.

وبمقارنة هذا العلم الإلهي اللانهائي بما في الأرحام بالعلم البشري المحدود فإنه يمكن القول بأن مبلغ هذا العلم البشري في هذا المجال لا يتعدى كونه علماً ظنياً. فأولاً يصعب كثيراً على العلم البشري أن يصل إلى استنتاج معين حول ما إذا كان رحم فتاة معينة ينجب أم لا قبل أن تتزوج هذه الفتاة. فإذا ما تزوجت

(*) سورة الشورى، الآية ٥٠.

هذه الفتاة ولم تنجب فلا يمكن للعلم البشري سوى فحصها واستنتاج عدم قدرتها على الإنجاب في وقت الفحص فقط، وتحديد أسباب ذلك على سبيل الاحتمال لا على سبيل القطع. إلا أن هذا العلم البشري لا يمكنه القطع بإمكانية شفاء رحم هذه المرأة في المستقبل إنما يمكن القيام بمحاولات تحتمل النجاح وتحتمل الفشل. ومهما بلغت نسبة احتمال النجاح فإنها لا تصل إلى الواحد الصحيح، أي أنها لا تصل إلى درجة التأكد من إمكانية شفاء الرحم. كذلك لو سلمنا جدلاً بأن العلم البشري قد توصل إلى إمكانية التأكد من شفاء الرحم الذي لا ينجب فإنه لا يمكن له أن يتأكد من أن هذا الرحم سينجب بالفعل أم لا، لأنه لا يمكن التأكد من أن هذه المرأة سيستمر زواجها أو أنها ستتزوج أصلاً أو أنها لن تصاب بسوء يمنعها من الحمل بعد ذلك.

ومما يدل على الفارق الكبير بين علم الله بما في الأرحام اللانهائي الدقيق وعلم البشر المحدود الظني أن كثيراً ما يقرر الأطباء استحالة حمل امرأة ما ثم تثبت الأيام خطأ هذا القرار فتحمل السيدة وتنجب. ولقد حدث ذلك ويحدث كل يوم وتسمع عنه بل ونعيشه بأنفسنا، فأين العلم البشري من كل هذه الحالات؟!!. وفي المقابل فإن الله سبحانه وتعالى يعلم مصير كل هذه الحالات المستعصية وعلى نحو نهائي ودقيق، ولعل خير مثال على ذلك ما كان بالنسبة لزوجة نبي الله إبراهيم عليهما السلام. إذ أرسل الله العليم القادر البشرى إليهما عن طريق الملائكة المكرمين، بأن السيدة سارة عليها السلام العجوز العقيم سيشفى الله رحمها وستلد طفلاً هو اسحق عليه السلام وهذا ما جاء جانب منه في قوله تعالى: ***(فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ)***(*). وهنا يتبين أحد أوجه المفهوم الحقيقي لعلم الله بما في الأرحام. فعلى الرغم من أن السيدة

(*) سورة الذاريات، الآية ٢٨.

سارة عليها السلام كانت عقيماً لا تلد منذ صباها وكانت في نفس الوقت امرأة عجوز، أي أن احتمال حملها كان مستحيلاً، مما يئس معه الجميع من حملها بما فيهم نبي الله إبراهيم عليه السلام فتزوج السيدة هاجر عليها السلام طلباً للذرية ...، على الرغم من تأكد الجميع باستحالة حمل السيدة سارة عليها السلام كان الله العليم الخبير يعلم بأنها ستحمل وبأنها ستنجب. ليس هذا فحسب بل أن الله سبحانه وتعالى قد بشر بطفل آخر يكون للطفل الأول ولداً وعقباً ونسلاً. أي أنه سيولد لإبراهيم وزوجته إسحاق عليهم السلام وسيولد لإسحاق يعقوب عليهما السلام فيما بعد. وهذا ما ورد ذكره في قوله تعالى: ***(فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ)***[1].

هذا هو أحد أوجه المفهوم الحقيقي لعلم الله بما في الأرحام. امرأة عجوز وعقيم منذ صباها تنجب!!. هل كان للعلم البشري أن يستنتج ذلك؟!!. هل للعلم البشري أن يستنتج أن رحم امرأة ما سينجب طفلاً وبعد ذلك بسنوات سينجب لهذا الطفل طفل أخر؟!! إن هذا أمر خارج عن نطاق العلم البشري ولا تستوعبه العقول البشرية وهذا ما دفع السيدة سارة عليها السلام أن تضرب بيدها على جبينها تعجباً، كما تفعل النساء عند حدوث أمر غريب، عندما بشرت بذلك وهذا ما جاء في قوله تعالى: ***(فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)***[2] وكان الرد الطبيعي على تعجبها من حدوث ذلك هو التذكير بأن الله حكيم عليم وذلك كما ورد في قوله تعالى: ***(قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)***[3].

كذلك فهناك مثال آخر على البون الشاسع بين علم العليم بما في الأرحام

---

[1] سورة هود، بالآية ٧١.

[2] سورة الذاريات، الآية ٢٩.

[3] سورة الذاريات، الآية ٣٠.

وبين علم البشر على نفس النحو السابق يتعلق بنبي الله زكريا وزوجته عليهما السلام. إذ نادى زكريا عليه السلام ربه في جوف الليل قائلاً: يا رب إنني قد ضعفت ووهنت وخارت قواي وأصبحت شيخاً كبيراً وقد اعتدت أن تلبي دعائي... يا رب إنني أخاف على ميراثي وميراث آل يعقوب من النبوة والعلم أن يضيعه عصبتي من بعدي فهب لي من عندك من يليني من ذريتي ليكون كفئاً ليرث هذا الميراث على الرغم من أن امرأتي عاقر لا تلد. فاستجاب له ربه وبشره بأن سيرزق من امرأته هذه بغلام اسمه يحيي. وعلى الرغم من إيمان زكريا عليه السلام بربه وبقدرته غير المحدودة في خلقه أي شيء، إلا أنه نظراً لأن امرأته كانت عاقراً فقد تعجب لذلك وقال وهو فرح مسرور: يا رب كيف يكون لي غلام وأنت تعلم أن امرأتي عاقر لم تلد منذ صباها كما أنني قد صرت شيخاً كبيراً لا قدرة لي على الإنجاب؟!!. وهنا أجاب رسول ربه من الملائكة بأن الله يقول لك إن خلق طفل في رحم امرأتك العاقر ومن رجل كهل مثلك، أمر هين عليّ وقد فعلت قبل ذلك ما هو أعجب من ذلك إذ خلقتك أنت نفسك من لا شيء!!. ولقد وردت هذه القصة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ***(ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا)*** (*).

وتدل هذه القصة على أن العلم الحقيقي الدقيق لما في الأرحام لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. إذ لم يكن أحد على الإطلاق ومن بينهم نبي الله زكريا وزوجته عليهما السلام يتوقع أو حتى يتصور أنه يمكنهما أن ينجبا في هذه

(*) سورة مريم، الآيات من ٢ إلى ٩.

الحالة، ومن ثم جاء خبر بشارتهما بنبي الله يحي عليه السلام مفاجأة لهما ولكل من حولهما بالطبع.

وكما سبق القول فهذا أحد أوجه المفهوم الحقيقي لعلم الله بما في الأرحام!!، الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يعرف على نحو قاطع ودقيق إمكانيات الإنجاب لكل الأرحام وما سيحدث لها من تغير وتبدل وإصلاح على نحو لا يمكن أن يرقى إليه العلم البشري مهما تقدم. وهذا ما حدث مع زوجة نبي الله زكريا عليهما السلام وذكر في قوله تعالى: ***(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ)*** (*).

ثانياً ـ العلم بأسرار تخليق الجنين:

كذلك فإن أسرار تخليق الجنين لا يعرفها على نحو دقيق إلا الله سبحانه وتعالى. وإن ما يعرفه الإنسان مجرد شواهد وظواهر لها لكنه لا يعرف أسرارها. ولقد استعرضنا في الفصل الرابع تصورا للعلم البشري حول أطوار خلق الجنين، إلا أن العلم البشري لا يعرف ولا يمكن له أن يعرف لماذا؟ وبمعنى آخر، فإننا لا نعرف شيئاً عن كيفية تحول النطفة الأمشاج وهي النطفة المخصبة إلى إنسان يتكون جسده من ٢٦٠ ألف بليون خلية!!. فإذا سألت أعلم العلماء لماذا تتحول الخلايا من شكل إلى أخر، لأجاب بأن هذه الخلايا لها قدرة ذاتية على التحول أو أن هذا التحول يتم بفعل هرمون أو أنزيم معين له القدرة الذاتية على فعل ذلك. وواضح أن هذه القدرة الذاتية ما هي إلا قدرة الله وعلمه اللذان وضعاً بهذه الخلايا والسوائل لتحولها وتقودها إلى التطور من مرحلة إلى أخرىٍ على نحو رائع دقيق. ومن العجيب أن جنين الإنسان ذا الثلاثين يوماً لا يمكن تمييزه من جنين السمكة أو جنين الأرنب أو جنين الدجاجة!!... ومع ذلك

(*) سورة الأنبياء، بالآية ٩٠.

فكل جنين من هذه الأجنة سيصير إلى نوعه حتماً بقدرة الله وعلمه. إذ أنه محكوم، منذ أول لحظة خلقه الله البارئ المصور، بعوامل وقوى غير منظورة توجهه وتسيره ويتشكل وفق ما قدرة الله له. هذا أيضاً هو أحد أوجه المفهوم الحقيقي لعلم الله بما في الأرحام والذي يتبين منه عجز العلم البشري عن أن يداني العلم الإلهي في هذا المجال.

ثالثاً ـ العلم بما في أرحام جميع المخلوقات:

يشتمل علم الله سبحانه وتعالى بما في الأرحام على علم ما في أرحام جميع المخلوقات، وليس الإنسان فقط. ويتضح هذا المعنى من قوله تعالى: ***(اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)***[1]. إذ أن الله سبحانه وتعالى لم يحدد علمه هذا فيما يعلق بالإنسان فقط، بل أطلق التعبير بقوله تعالى ***(كُلُّ أُنْثَى)*** ليشمل إناث جميع مخلوقاته من إنسان وحيوان وطير، بل إن هذا المعنى يشمل الجان أيضاً، بل ويشمل جميع المخلوقات التي لا يعرفها الإنسان. ويمكن التوصل إلى نفس الاستنتاج من قوله تعالى: ***(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)***[2]. إذ أن الله سبحانه وتعالى لم يحدد هذه الأرحام بأرحام الإناث البشرية، بل أطلق اللفظ ليشمل المعنى أرحام جميع المخلوقات. كذلك يتبين ذلك جلياً من استكماله الغيبيات بقوله تعالى: ***(مَا تَدْرِي نَفْسٌ)***، أي أن علمه سبحانه لهذه الغيبيات لا يقتصر فقط على ما يتعلق بالإنسان إنما هو أوسع وأشمل من ذلك بكثير، إذ يشتمل على ما يتعلق بجميع المخلوقات.

---

[1] سورة الرعد، الآية ٨.

[2] سورة لقمان، بالآية ٣٤.

وواضح أن الإنسان الذي لا يمكنه مجرد حصر مخلوقات الله فضلاً عن استقصاء عددها لا يمكنه بحال من الأحوال أن يصل إلى شيء يذكر حول علم ما بأرحامها!!. ويزداد الجهل البشرى في هذا المجال وضوحاً إذا أخذنا في الاعتبار أن هذا الإنسان رغم ما يدعيه من علم لا يعرف كثيراً من خلق الله ولو على سبيل المعرفة أو الإحصاء وهذا ما ذكره الله في القرآن الكريم بقوله تعالى: *(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ)*(*) فما بال معرفته بما في أرحامها.ناهيك عن أن هذه المخلوقات لا تتكاثر جميعها بطريقة واحدة. فمنها ما يلد ومنها ما يبيض ومنها ما ينقسم ومنها ما لا نعرف طريقة تكاثره. وهذا أيضاً أحد أوجه المفهوم الحقيقي لعلم الله بما في الأرحام وكيف أن هناك بوناً شاسعاً بينه وبين علم الإنسان في هذا المجال.

رابعاً ـ العلم بجميع أحوال الأجنة بالأرحام في جميع أزمانها:

وعلى الرغم من أن أصل البشر جميعاً واحداً هو أبوهم آدم عليه السلام، إلا إنهم يتباينون فيما بينهم تبايناً لا يمكن لأحد حصره إلا الله سبحانه وتعالى الواسع الخبير. إذ أن حساب حجم هذا الاختلاف والتباين لا يمكن إجراؤه باستخدام قوانين التوافيق والتباديل التي نعرفها. فلو افترضنا جدلاً معرفة تعداد البشر منذ بدء الخليقة، أي منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام وحتى لحظة قراءة هذه السطور، وهو ما لا يمكن حصره. وبمعلومية عدد الصفات الجسدية والنفسية والسلوكية والعقلية وغيرها لبني البشر وهو ما لا يمكن حصره أيضاً، وكذا بمعلومية درجات ومستويات هذه الصفات وجميعها متغيرات متصلة، أي تأخذ قيماً صحيحة وقيماً كسرية، لا يمكن حصرها، يتبين استحالة حصر مدى اختلاف صفات البشر بين بعضهم البعض. فتبارك الله الواسع العليم

(*) سورة النحل، بالآية ٨.

الذي يتسع علمه ليشمل كل شيء.... كل شيء. فالإنسان بما وصل إليه من علم لا يمكنه مجرد حصر الصفات البشرية، فضلاً عن استقصائها. ولا يقارن علم الإنسان البسيط بعلم الله الواسع الذي لا يمكن إدراكه. ولقد صدق الله العظيم بقوله تعالى: *(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)*(*) وكما سبق القول تتمثل عظمة العلم الإلهي في أنه علم دقيق وشامل وكامل يتضمن كل هذه الصفات الجسدية والنفسية والسلوكية والعقلية لجميع عباده من البشر. فالله يعلم جميع أحوالهم قبل أن يخلقهم وبعد أن خلقهم وأثناء حياتهم وبعد مماتهم. فكل ذلك مكتوب عنده في اللوح المحفوظ. أي أن الله الواسع العليم بعلم جميع أحوال الأجنة بالأرحام في جميع الأزمان فلا يقتصر هذا العلم على معرفة جميع أحوالها أثناء وجودها بالأرحام فقط بل يمتد ليشتمل هذا العلم الأزلي على كل شيء... كل شيء يتعلق بهذه الأجنة التي بأرحام أمهاتها في جميع أزمانها الثلاثة قبل أن يخلقها الله بالأرحام وأثناء تواجدها في الأرحام وبعد خروجها من الأرحام إلى الحياة الدنيا وكذلك ما سيئول إليه حالها في الحياة الآخرة.

وفيما يلي نتناول ذلك بالإيضاح:

أ- العلم بجميع أحوال الأجنة بالأرحام قبل وجودها بالأرحام:

سبق أن أوضحنا في الفصل الرابع أن الله سبحانه وتعالى يعلم علم اليقين جميع أحوال خلقه قبل أن يخلقهم، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ عنده. ولقد أرى الله القادر آدم جميع ذريته وهم لا يزالون في عالم الذر في يوم عرفة *Arafat Day* بمنطقة نعمان. وظهر كل فرد منهم بصفاته التي سيكون عليها في الدنيا. فالله سبحانه وتعالى يعلم جميع أحوال وصفات وأمور ومصائر خلقه وما سيئول إليه حالهم في الآخرة قبل أن يصيروا في الأرحام. ولعل من خير الأمثلة على

(*) سورة النحل، بالآية ٧٤.

علم الله بما في الأرحام قبل أن تصير بالأرحام هو بشارته جل وعلا لنبيه زكريا وامرأته عليهما السلام بإنجاب غلام اسمه يحيى عليه السلام.

ولقد ورد ذكر هذه البشارة بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ***(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا)***[1]. ولقد أسماه الله قبل أن يخلق برحم أمه اسماً لم يكن معروفاً من قبل ولم يسم به أحد من قبل. وبطبيعة الحال لم تكن تسميه الله العليم لهذا الغلام بهذا الاسم مجرد تسمية خالية من الحكمة، إذ أحيا الله بميلاد هذا الغلام رحم أمه التي كانت عاقرا كما سبق إيضاحه، كما دل هذا الاسم على سيرته المستقبلية في حياته الدنيا وما سيئول إليه حاله في الآخرة إذ أن هذا الغلام سيكون في دنياه وفي آخرته حياً كاسمه. سيحيى في الدنيا وسيحيا في الآخرة. إذ سيحيى نبي الله يحيى عليه السلام في الحياة الدنيا إلى أن يستشهد في سبيل الله فيحيى عند ربه في الآخرة إذ أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، كما ذكر الله تعالى في القرآن الكريم. كذلك أوضح الله سبحانه وتعالى صفات هذا الغلام وسيرته في الحياة الدنيا والآخرة ويتضح هذا في قوله تعالى: ***(أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ)***[2]. أي إن هذا الغلام المرتقب سيكون مصدقاً بكلمة من الله عيسى ابن مريم عليهما السلام وبالفعل كان يحيى عليه السلام أول من صدق بعيسى ابن مريم عليهما السلام وسار على سنته ومنهاجه، كما أنه سيكون سيداً، أي سيداً في العلم والعبادة والأخلاق وحليماً لا يغلبه الغضب وهو الشريف الكريم على الله عز وجل وحصورا أي لا يأتي النساء مع القدرة على ذلك، كما أن الله عز وجل قد بشر بنبوته وصلاحه وقد كان بالفعل.

---

[1] سورة مريم، الآية ٧.

[2] سورة آل عمران، بالآية ٣٩.

وهل هناك مثال على علم الله العليم بما في الأرحام قبل أن تخلق بالأرحام أفضل من بشارته عز وجل لمريم ابنة عمران رضي الله عنها وأرضاها، وهي التي لم تتزوج ولم يمسسها بشر على الإطلاق، بأنه سيخلق في رحمها ولدُ. ثم يخبرها بأن اسمه المسيح عيسى عليه السلام وبأن هذا الولد سيكون عظيماً صالحاً عابداً قانتاً وجيهاً في الدنيا وفي الآخرة ومن المقربين إلى جناب الله سبحانه وتعالى. ليس هذا فحسب بل يقص عليها تفاصيل كثيرة عن أموره المستقبلية من حيث إنه سيكلم الناس وهو وليد في المهد على غير المعروف، مغيراً بذلك نواميس الكون. وكذلك أخبرها الله بأن ابنها، الذي لم يخلق بعد، سيتعلم العلم والحكمة ويفقه كتبه المنزلة من توراة وإنجيل. والأهم من ذلك أن الله العليم الخبير قد أخبر ابنة عمران رضي الله عنها أن ابنها هذا الذي لم يخلق بعد سيكون رسولاً من الله إلى بني إسرائيل!!!.

ولعل هذا يوضح جانباً آخر من جوانب المفهوم الحقيقي لعلم الله بما في الأرحام. إذ أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما في الأرحام قبل أن يخلقوا بالأرحام. ولا يعلم هذا العلم عن ما بالأرحام إلا الله سبحانه وتعالى، إلا أنه كما سبق القول في الفصل السادس أن الله سبحانه وتعالى قد يظهر جانباً من هذا الغيب لمن يرتضي من عباده الصالحين مثال ذلك اطلاع الله الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى علم ميلاد الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قبل ميلاده بحوالي أربعين عاماً ولقد تضمن هذا الاطلاع على الغيب جانباً من اسم الشخص ونسبه وصفاته الجسدية وسيرته في الحياة الدنيا!!. فقد حدث أن رأى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في منامه ذات ليله رؤيا عجيبة نهض على أثرها مستبشراً يقول: "من هذا الأشج من بني أميه، ومن ولد عمر، يسمى عمر، يسير بسيرة عمر، ويملأ الأرض عدلاً"[*]؟ إلا أن اطلاع الله

---

[*] خالد محمد خالد، خلفاء الرسول، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، عام ١٤٠١هـ : ١٩٨١، ص ٤٩٧.

سبحانه وتعالى بعضاً من عباده على هذا الغيب المتعلق بما في الأرحام قبل أن يخلقوا فيه وعلى هذا النحو لا يحدث إلا نادراً جداً ولمن يرتضى الله من عباد صالحين. وعلى ذلك يمكن القول بأن هذا النوع من الغيب لا سبيل للإنسان إلى معرفته، ومن ثم يتبين لنا أن علم الله بما في الأرحام قبل وجودها بالأرحام لا يعرفه إلا الله سبحانه وتعالى.

ب- العلم بجميع أحوال الأجنة بالأرحام أثناء وجودها بالأرحام:

أوضحنا بالفصل الرابع أطوار خلق البشر وفقاً لما توصل إليه العلم البشري من فهم وإدراك. وواضح أن هذا العلم يعوزه الدقة وينقصه الشمول والكمال، وذلك على غير الحال بالعلم الإلهي الدقيق الكامل الشامل. إذ أن الله هو الخالق البارئ المصور، ومن ثم فهو سبحانه الذي يعرف عن هذه الأطوار كل شيء ولا يخفي عليه منها شيء. فالله هو خالق هذه الأجنة في أرحامها بل وهو سبحانه خالق هذه الأرحام قبلها، ومن ثم فلا يمكن للعلم البشري أن يرقى إلى مستوى العلم الإلهي حول ما بالأرحام أثناء وجودها بالأرحام.

وللتدليل على الفارق الكبير بين علم الله العليم بما في الأرحام أثناء وجودها بالأرحام وبين العلم البشري المحدود نسوق فيما يلي بعض الأمثلة منها، أن الله تعالى يقول في كتابه الكريم: (***عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ***)(*) وتوضح هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى ينشأ الخلق ويعلم حاله من الصفات والأحوال منذ هذه النشأة، فهل للعلم البشري أن يعلم شيئاً عن هذه الصفات والأحوال لبني البشر منذ أن أنشأهم الله أجنة بالأرحام؟!!. ولقد سبق أن أوضحنا بالفصل الرابع ما روى عن رسول الله (ﷺ) من أنه إذا مر على النطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً يصورها في الرحم كيف يشاء الله،

(*) سورة الواقعة، الآية ٦١.

ويحدد جنسها ذكراً أم أنثى ويكتب رزقه وما إذا كانت هذه النطفة ستكون إنساناً شقياً أم سعيداً، وكذا يكتب على جبينه كل شيء من الصفات والأحوال. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن كل شيء عن هذا الجنين وما سيئول إليه من صفات كإنسان يكون معروفاً للملك الذي يرسله الله في هذه الفترة، فأين العلم البشري من كل هذا العلم الإلهي عن الأجنة بالأرحام؟. إن العلم البشري لا يمكنه بحال من الأحوال أن يعرف صفات وأحوال الإنسان منذ نشأته جنيناً في رحم أمه ... بل إن هذا العلم لا يمكنه أن يعرف أصلاً ولو على وجه التحديد مم خلق هذا الإنسان؟!! وهذا ما أوضحه الله سبحانه وتعالى في قوله: ***(سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)***[1]. وواضح أن الله عز وجل قد بدأ هذه الآية بقوله تعالى سبحان، أي تنزه الله وتنزه علمه وتنزهت قدرته عن أن يرقى إليه أي من خلقه في ذاته العلية أو في علمه أو في قدرته أو أي شيء من الأشياء.

كذلك هل يمكن للعلم البشري أن يقرر على وجه التحديد أن بويضة ما ملقحة بالرحم ستصبح جنيناً كاملاً؟... وبالطبع فإن الإجابة على هذا السؤال ستكون بالنفي، خاصة بعد أن أثبتت الأبحاث الحديثة أن ما يقرب من ٧٨٪ من كل حمل يجهض ويتم إسقاطه، وأن حوالي ٥٠٪ منها تسقط قبل أن تشعر الأم ذاتها بأنها حامل[2]!!. وهذه النتائج تأتي مصداقاً لقوله تعالى: ***(فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ)***[3]. كما تأتي هذه النتائج مصداقاً للحديث النبوي الشريف الذي يفسر

---

(1) سورة يس، الآية ٢٦.

(2) الدكتور/ محمد علي البار، خلق الإنسان بين الطب والقرآن، مرجع سابق، ص١١٢.

(3) سورة الحج، بالآية ٥.

جانباً من ما جاء بالآية السابقة، والذي يروى عن رسول الله (ﷺ) قوله: *"إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً فقال يا رب مخلقة أو غير مخلقة. فإن قال غير مخلقة مجتها الأرحام دماً"* (*).

فأين العلم البشري من هذا الذي يدور بالأرحام؟!! ومثال آخر وأخير حول عجز العلم البشري عن معرفة أي شيء محدد عن ما بالأرحام يتعلق بأمر من أبسط الأمور حول الجنين بالرحم وهو ميعاد ولادته. فالمفروض أن معرفة ميعاد ولادة الطفل من أبسط الأمور لمن يدعي معرفته بما في الأرحام. إذ أن العناية الإلهية لا تسمح بميلاد الطفل إلا بعد اكتمال نموه فإذا ما اكتمل هذا النمو فلن يبقى في رحم أمه للحظة واحدة. ومن ثم فإن معرفة ميعاد الولادة وتحديده يعتبر أبسط بكثير من معرفة أي شيء يتعلق بالجنين أثناء فترة نموه، فالأمر حينئذ لا يتعدى معرفة أن الجنين قد اكتمل نموه وصار طفلاً. وهنا يثار سؤال بسيط هو: هل يمكن للعلم البشري أن يقرر على وجه التحديد أن طفلاً ما سيولد في لحظة ما أو في ساعة ما أو حتى في يوم ما؟. واضح أن الإجابة على هذا السؤال بالنفي. إذ أن كل ما يمكن للعلم البشري أن يقدمه هو مجرد احتمالات!!. فمعروف أن الجنين البشري يستقر في رحم أمه حوالي تسعة أشهر، ومع ذلك فهناك أطفال يولدون لسبعة أشهر وآخرين يولدون لثمانية ومنهم من يحيى ويعيش بعد ذلك ومنهم من يموت. فأين العلم البشري من ذلك؟!!. إن معرفة فترة بقاء الجنين في رحم أمه على وجه التحديد أمر لا يعرفه إلا الله علام الغيوب ويتضح هذا من قوله تعالى: ***(وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ***

(*) أخرجه أبن أبي حاتم وابن رجب، انظر/ زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين ابن أحمد بن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، مرجع سابق، ص٤٧، ٤٨.

مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا)[١]. وواضح أن هذا الأجل المسمى لا يعرفه محدداً إلا الله الخالق العليم وإنه يختلف من طفل لآخر وإلا لذكره الله عز وجل على وجه التحديد في كتابه الكريم مثلما حدد أشياء أخرى كثيرة غيره. إذ لم تقتض الحكمة الإلهية تحديد شيء عن هذا الأجل المسمى الذي يُقر فيه الجنين في الرحم. وكل ما ذكره الله في كتابه الكريم هو قوله تعالى: *(وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا)*[٢]. أي أن الله عز وجل قد حدد فترة واحدة لكل من الحمل والفصال، أي الحمل والرضاعة معاً ولم يذكر فترة مستقلة محدودة للحمل فقط!!.

وحقيقة الأمر فإن اختلاف فترة بقاء الجنين في رحم الأم قبل ميلاده من طفل لآخر كان من أسباب عدم قدرة العلم البشري على الوصول إلى شيء محدد حول موعد الميلاد. ومع ذلك فلو حدد الله فترة البقاء هذه بدقة فإن أمر تحديد موعد ميلاد الطفل لم يكن ستقل صعوبته ولو لبعض الشيء، إذ أن الأمر حينئذ كان سيتطلب تحديد الميعاد الذي تم فيه الحمل بهذا الجنين. وحقيقة فإن تحديد هذا الميعاد على نحو دقيق يعتبر أمراً مستحيلاً كذلك!!.

ولعل السؤال التالي والمنطقي الذي ينبغي أن يثار الآن هو: لماذا يعتبر تحديد ميعاد الحمل بالجنين تحديداً دقيقاً أمراً مستحيلاً؟. وللإجابة على ذلك نقول: إن التلقيح غالباً ما يتم بعد حوالي أربعة عشر يوماً منذ بداية آخر حيضة للمرأة مع فارق حوالي يومين زيادة أو نقصاً. وواضح أننا الآن أمام عملية تقريبية. كذلك فإذا حسبت بداية التلقيح من وقت الجماع الذي حدث بعده الحمل فإن هذا يتطلب ألا يكون قد حدث جماع آخر حتى يتبين أي جماع كان سبب الحمل. ولو تصورنا تحديد الجماع بين الزوجين في جماع واحد، فإنه مع ذلك لا يمكن تحديد

---

[١] سورة الحج، بالآية ٥.

[٢] سورة الأحقاف، بالآية ١٥.

ميعاد التلقيح بدقة في هذه الحالة، إذ ربما تبقى الحيوانات المنوية حية لمدة تصل إلى ثلاثة أيام قبل أن يتم التلقيح. وإذا كان العلم البشري لا يمكنه التحديد الدقيق لميعاد آخر حيضة للأم الحامل، ولا يمكنه التحديد الدقيق لتاريخ الاتصال الجنسي سبب الحمل، كما لا يمكنه التحديد الدقيق لميعاد وصول الحيوان المنوي للبويضة الملقحة فكيف له معرفة ميعاد التلقيح بدقة؟!!.

هناك طرق أخرى يحاول بها علماء الطب والأجنة تحديد عمر الجنين إلا أنها أقل دقة بكثير من الطريقة السابقة. فيحاول أطباء التوليد تحديد عمر الجنين بمستوى الرحم في بطن المرأة، وقد يستعينون في ذلك بأجهزة الموجات فوق الصوتية. كذلك يحاول علماء الأجنة تحديد عمر الجنين بطوله ولهم في ذلك طرقهم المختلفة، إلا أنه واضح أن هذه الطرق تحاول أن تقيس أطوال وثابت أيضاً أنه لا يمكن تحديد هذه الأطوال في المراحل الأولى من النمو. وأنه مهما كانت درجة دقة القياس فيظل العمر المحدد للجنين رقماً تقريبياً ربما يزيد أو ينقص عن الرقم الدقيق الذي يعلمه الله بيوم أو يومين(*)!!.

وأخيراً ولو افترضنا جدلاً أنه أمكن للعلم البشري تحيد ميعاد التلقيح بالجنين وكذا ميعاد ميلاده طفلاً على وجه دقيق، فهل للعلم البشري أن يحدد ما إذا كان هذا الجنين بالرحم سيولد أصلاً أم لا؟ أم أنه سيموت في رحم أمه؟ أم أن أمه أصلاً ستموت في هذه المرحلة بمرض أو بحادثة؟... هل يمكن للعلم البشري التوصل إلى نتائج محدده في هذا المجال؟!!. واضح أن العلم البشري لا يمكنه أن يرقى بحال من الأحوال إلى المستوى الدقيق والكامل والشامل للعلم الإلهي بما في الأرحام أثناء وجودها بالأرحام. بل إن هذا العلم

(*) الدكتور/ محمد علي البار، خلق الإنسان بين الطب والقرآن، مرجع سابق، ص. ص ٤١٢ ـ ٤١٤.

البشري يستحيل عليه تصور العلم الإلهي فضلاً عن استيعابه.

أما بالنسبة لادعاء البعض بأن المقصود بعلم الله بما في الأرحام هو علم ما إذا كان الجنين بالرحم ذكراً أم أنثى فادعاء باطل. ونظراً لخطورة هذا الادعاء على نحو ما أوضحنا سلفاً فقد خصص له في هذا الفصل جزء خاص لتقنينه بشكل حاسم ونهائي ليتبين لكافة البشر أنه الحق.

ج- العلم بجميع أحوال الأجنة بالأرحام بعد خروجها للحياة الدنيا:

ويشتمل هذا العلم على ما سيكون عليه الجنين بالرحم في مرحلة ما بعد الرحم، أي بعد خروجه من الرحم بميلاده للحياة الدنيا.

ويتضمن العلم بما سيكون عليه الجنين بالرحم في حياته الدنيا العلم بما إذا كان هذا الجنين سيولد صحيحاً معافاً أم مريضاً، وما نوع المرض، ومدى استشرائه في الإنسان المولود وهل سيشفى منه أم لا؟ ومتى؟. كذلك فالله سبحانه وتعالى يعلم عمر الإنسان في الحياة الدنيا، ومتى سيموت، ولقد صدق سبحانه وتعالى إذ قال: ***(وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ)***[1]. كذلك فالله سبحانه وتعالى يعلم بأي أرض يموت هذا الجنين إن قدر الله له أن يولد ويعيش، كما يعلم كيف ستكون وفاته وذلك على نحو ما سبق ذكره.

وفي نفس الوقت فالله سبحانه وتعالى يعلم علم اليقين ما فيه خير أو شر كل جنين في الرحم، بعد أن يولد ويصير طفلاً أو شاباً أو كهلاً، ومعرفته هذه أدق وأرقى بكثير من معرفة كل إنسان بما فيه خيره أو شره، ولم لا وقد قال علام الغيوب: ***(فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً)***[2].. كما قال تعالى: ***(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ***

---

[1] سورة فاطر، بالآية ١١.

[2] سورة النساء، بالآية ١٩.

لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)[1]. إذ أن أحوال الإنسان وأموره كلها لا يعرفها حق معرفتها إلا خالقه وخالقها. وليس للإنسان علم بهذه المصالح إلا من بعض الوجوه، والذي يخفى عليه منها أكثر مما يبدو له، فربما يسعى الإنسان لمنفعته من وجه لا يوصله إليها، أو يوصله إلى منفعة بسيطة عاجلة ثم يتضح فيما بعد أنها ضرر حقيقي، أو يوصله إلى منفعة ناقصة مبتورة، أو يكون بها مفسده تربو على المصلحة فلا يقوم خيرها بشره. وكذلك فإن الله سبحانه وتعالى يعلم جيداً ما سيفعله كل عبد من عباده من أعمال وأقوال سواء كانت هذه الأعمال أو الأقوال خيراً أم شراً.

ويرقى علم الله سبحانه وتعالى عن الأجنة في الأرحام بعد خروجها للحياة الدنيا ليتجاوز بكثير علم ما سيفعلونه في حياتهم الدنيا. إذ يمتد هذا العلم ليشمل علم ما في أنفسهم في حياتهم الدنيا أيضاً. يؤكد ذلك ما قاله الله سبحانه وتعالى في محكم آياته: *(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)*[2]. ومن ثم فالله الخبير العليم يعلم على نحو يقين ما إذا كانت نفس كل جنين بعد ولادته ستكون شحيحة أم كريمة؟... أمارة بالسوء أم لوامة أم نفس مطمئنة؟ ولم العجب وقد سوى سبحانه هذه الأنفس فألهما فجورها وتقواها.

ويبلغ العلم الإلهي بالأنفس البشرية مبلغاً لا يُرقى إليه، وهل هناك أرقى علماً من أن يعلم الله سبحانه وتعالى عن نفس عبده أكثر من أن يعلم عبده نفسه عن نفسه؟!!. فسبحانك يا من يحار الفهم في قدرتك!!. نعم إن الله سبحانه وتعالى يعلم ما بنفس كل عبد من عبادة على نحو أعظم وأرقى بكثير من معرفة كل

---

(١) سورة البقرة، بالآية ٢١٦.

(٢) سورة ق، الآية ١٦.

عبد بنفسه. يدلل على ذلك ما جاء بكتابه الكريم إذ قال: *(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)*[١].. كما قال تعالى جلت قدرته: *(اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ)*[٢].. وتوضح الآيتان السابقتان أن الله العليم الخبير أكثر علماً من عباده بما في أنفسهم. مما سبق يمكن القول بأن الله العلي القدير يعلم عن الأجنة في الأرحام بما سيكون منهم بعد ميلادهم في الحياة الدنيا.

- *العلم بجميع أحوال الأجنة بالأرحام بالدار الآخرة:*

كذلك فالله علام الغيوب يعلم علم اليقين بما سيكون عليه حال الجنين برحم أمه بعد ميلاده ومعيشته في الحياة الدنيا، وبعد وفاته وانتقاله إلى الدار الآخرة. أي بعد البعث resurrection هل سيكون من أهل الجنة؟... أم سيكون من أهل النار؟ وعلم الله العليم الخبير في ذلك يثير العجب العجاب!!. فالله سبحانه وتعالى يعلم مصير كل إنسان في الآخرة، وعلمه هذا ليس استنتاجاً من عمل كل إنسان في حياته الدنيا، إنما علم يقيني يعلمه الله سبحانه وتعالى عن كل عبد من عباده منذ الأزل وقبل أن يخلق، وبطبيعة الحال فالله يعلمه عن كل العباد وهي بأرحام أمهاتها!!. وعلم الله بمصير عباده في الآخرة وهي في أرحام أمهاتها كما سبق بيانه، دقيق وصحيح وكامل وشامل، إذ أنه الحقيقة ذاتها وهو سبحانه وتعالى أعلم من عباده بأنفسهم. أي أن علم الله بمصير عباده في الآخرة وهم أجنة في الأرحام أعظم بكثير من علم عباده أنفسهم عن مصيرهم في الآخرة وهم في حياتهم الدنيا. بل وهم في آخر أيام حياتهم، وقد عاشوا الحياة وفعلوا ما فعلوا خيراً كان أم شراً.

---

[١] سورة الإسراء، بالآية ٢٥.

[٢] سورة هود، بالآية ٣١.

فعلى الرغم من أن العبد الصالح الذي يؤمن بالله وباليوم الآخر ويعمل عملاً صالحاً في الحياة الدنيا يرجو حسن ثواب الآخرة على نحو ما أوضح الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بقوله: *(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)*[1]. إلا أن أحداً من العباد الصالحين لا يمكنه الاطمئنان إلى دخول الجنة في الآخرة، على الرغم من كل ما عمل من خير في حياته الدنيا، إذ أن أحداً من البشر لن يدخل الجنة بعمله إنما سيدخل الجنة من يدخلها برحمة الله وغفرانه وكرمه سبحانه. وها هو أبو بكر الصديق، رضي الله عنه ثاني اثنين إذ هما في الغار ونسيب رسول الله (ﷺ) وخليفته، يقسم بالله إنه لو كانت إحدى قدميه في الجنة والأخرى لا تزال خارجها ما اطمأن إلى دخولها إذ أنه لا يأمن مكر الله!!. يقسم أبو بكر الصديق رضي الله عنه بذلك وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة بل هو أولها!!.

نعم لن يطمئن أحد إلى دخول الجنة مهما كانت مكانته في الإسلام ويحكى أن الخليفة الراشد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبا موسى الأشعري ذات يوم وهو جالس عنده "يا أبا موسى، هل يسرك أن إسلامنا مع رسول الله وهجرتنا معه، وشهادتنا، وعملنا كله يُرد علينا، لقاء أن ننجو كفافاً، لا لنا ولا علينا".؟! فيجيب أبو موسى عليه قائلاً "لا والله يا عمر، فلقد جاهدنا، وصلينا، وصمنا، وعملنا خيراً كثيراً، وأسلم على أيدينا خلق كثير وإنا لنرجو ثواب ذلك". فيرد عمر بن عبد الخطاب رضي الله عنه باكيا (أما أنا، فوالذي نفس عمر بيده لوددت أن ذلك يُرد لي، ثم أنجو كفافاً، رأسا برأس)[2]..!!.. ابن الخطاب رضي الله عنه لا يطمئن لدخول الجنة وهو من هو في الإسلام!!... ابن الخطاب رضي الله عنه لا يطمئن لدخول الجنة وهو، كما قال أستاذنا خالد محمد

---

[1] سورة البقرة، الآية ٨٢.

[2] خالد محمد خالد، خلفاء الرسول، مرجع سابق، ص ١٣٩.

خالد يرحمه الله، لأقوى من كل شهوة وذله، حتى لكأنه معصوم من الخطأ عصمه كاملة!!. فمن بعد هذا يطمئن لدخول الجنة؟ مما سبق يمكن القول إن أحداً من البشر لا يمكنه أن يضمن الجنة في الآخرة وأن توقع مصيره في الجنة فإن هذا لا يرقى بحال من الأحوال إلى علم الله علام الغيوب في هذا المجال، إذ أن علم الله العليم هو علم اليقين!!.

ومن ناحية أخرى، فإن العبد الآبق الذي لا يعمل في دنياه أعمالا صالحه وطالما تدنس بالخطايا وتكبد السيئات، لا يشعر برضى الله سبحانه وتعالى عليه ويتوقع في أواخر عهده بالدنيا أن يعاقبه ربه المنتقم الجبار بالنار في الآخرة، وذلك على نحو ما أنذر الله سبحانه وتعالى عباده به بقوله عز وجل: ***(بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)***[1]. إلا أن هذا الآبق العاصي يرجو مغفرة من ربه في نفس الوقت... ولم لا وهو سبحانه الغفور الرحيم. فربما وفقه الله سبحانه وتعالى في أواخر أيامه إلى عمل صالح يرضيه، فيتوب التواب الرحيم عليه فيدخله الجنة!! أليس هذا مصداقا لقوله تعالى: ***(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)***[2].

مما سبق يمكن القول بأن الله سبحانه وتعالى يعلم علم اليقين أحوال عباده وما سيكون عليهم حالهم في الآخرة سواء منهم من كان من أهل الجنة أو من كان من أهل النار. وعلمه عز وجل في هذا أعظم من علم عباده أنفسهم عن أنفسهم، إذ أن من العباد من يظن أنه من أهل الجنة وهو من أهل النار، ومنهم من يظن أنه لا سبيل إلى رضى ربه بعد ما كان من معاصيه، فيتوب الله عليه ويدخله الجنة. فسبحان من يعلم أحوال البشر في الآخرة وهم لا يزالون بالأرحام.

---

[1] سورة البقرة، الآية ٨١.

[2] سورة التوبة، بالآية ١١٨.

وفي النهاية يمكن القول بأن علم الله سبحانه وتعالى بما في الأرحام علم قديم قبل أن يخلق الله الخالق المصور الإنسان. ويتسع هذا العلم ليشمل معرفة كل شيء عن هده الأجنة في الأرحام قبل أن تتواجد في الأرحام وأثناء وجودها في الأرحام وبعد خروجها من الأرحام في حياتها الدنيا، ويمتد هذا العلم ليشمل ما سيكون عليه حال بشر هذه الأجنة في الآخرة. فسبحان من يتسع علمه ليعلم كل شيء عن كل شيء عن كل الأجنة وهي في الأرحام!!.

الدليل على صحة هذا البعد من العلم من القرآن الكريم:

ولقد أوضح الله العليم مفهوم علمه بما في الأرحام على نحو ما سبق أن بيناه بحيث يشتمل هذا العلم الواسع على علمه عز وجل بأحوال هذه الأجنة قبل أن توجد في الأرحام. وأثناء وجودها بالأرحام وبعد خروجها من الأرحام في قوله تعالى: ***(هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)***[1]. إذ يفهم من هذا الجزء من الآية الكريمة المفهوم الصحيح لعلم الله سبحانه وتعالى بما في الأرحام والذي يمكن إيجازه في النقاط الخمس التالية:

أ- إن علم الله الواسع العليم عن أحوال عباده أكثر من علم عباده أنفسهم ويفهم ذلك من قوله تعالى:*(هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ)*[2]، أي هو سبحانه أكثر علماً منا بأحوالنا.

ب- أن الله الخبير العليم يعلم بأحوال عباده منذ أن أنشأهم من الأرض، وذلك واضح من قوله تعالى: *(إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ)*[3]. أي أن الله يعلم أحوال عباده منذ أن أنشأهم من الطين في عالم الذر.

---

[1] سورة النجم، بالآية ٣٢

[2] سورة النجم، بالآية ٣٢.

[3] سورة النجم، بالآية ٣٢.

ج- أن الله سبحانه وتعالى يعلم أحوال عباده وهم أجنة في بطون أمهاتهم وذلك على نحو ما جاء بالآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾[1]. أي أن الله عز وجل يعلم أحوال عباده وهم أجنة بالأرحام.

د- أن الله سبحانه وتعالى يعلم أحوال عباده بعد خروجهم من الأرحام إلى الحياة الدنيا، بدليل قوله تعالى في نفس الآية: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[2]. والتقوى لا تكون إلا في الحياة الدنيا ولا يمكن أن تكون قبل ذلك أو بعد ذلك.

هـ- كذلك يفهم من قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[3]. إن الله سبحانه وتعالى يعلم علم اليقين ما سيكون إليه حال عباده في الحياة الآخرة. إذ أن التقوى في الدنيا ليس لها جزاء إلا الجنة في الآخرة. ومن ثم فالله سبحانه وتعالى يعلم من من عباده سيكون من أهل الجنة بجميع درجاتها ومن منهم سيكون من أهل النار بجميع دركاتها.

وخلاصة القول فعلى الرغم مما ذكر من أمثلة عديدة توضح شمول علم الله عز وجل وكماله بما في الأرحام فإن هذه الأمثلة لا توضح بالطبع كل هذا الشمول والكمال وتظل أمثلة في حد ذاتها لا حصراً... وكيف نحصى مدى شمول وكمال علم الله بقدراتنا البشرية المحدودة؟!!. وإذا كان علم الله سبحانه وتعالى بهذا الشمول والكمال أفيمكن أن يدعى أي إنسان إنه كشف علم الله بما في الأرحام؟!! فلو تصورنا جدلاً أن الله قد أظهر بعض الغيب لعباده نتيجة لأخذهم بالأسباب كما أمرهم، فعرفوا أقل القليل عن رحم المرأة، وذلك لحكمة ورحمة إلهية بعباده تساعدهم على علاج بعض الأمراض بإذن الله... هل يمكن

---

[1] سورة النجم، بالآية ٣٢.

[2] سورة النجم، بالآية ٣٢.

[3] سورة النجم، بالآية ٣٢

بعد هذا أن نقول إننا قد توصلنا إلى علم الله بما في الأرحام... هل يمكن للنملة في المثال السابق بالفصل السادس التي كانت تسير على الورقة البيضاء التي كان يكتب عليها علماء الأجنة وصفا لرحم المرأة أن تدعى أنها توصلت إلى ما يدور في علم هذا الإنسان وما كتبه وما ينوي أن يكتبه لمجرد أنها تصورت أن ما رأته على الورقة نقطة سوداء؟!!. والتشبيه هنا مع الفارق طبعاً. فالفرق بين هذه النملة وبين عالم الأجنة أقل بكثير من الفرق بين هذا الإنسان وربه. فالفرق الأول هو فرق بين مخلوق وآخر، فالنمل في الحقيقة أمه مثل الأمة البشرية. والفرق الثاني بين عبد ورب، أي بين خالق ومخلوق، فالفرق الأول ضئيل على اتساعه والفرق الثاني لانهائي في لا نهائيته!!.

خامسا ــ العلم بما في أظهر الرجال:

قد يتعجب البعض من القول بأن أحد أبعاد المفهوم الحقيقي لعلم الله بما في الأرحام هو العلم بما في أصلاب الرجال، وقد يكون هذا التعجب راجعاً أصلاً إلى أن الآية الكريمة السابق ذكرها بسورة لقمان قد نصت على قوله تعالى: *(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)*(*). والأرحام هي جمع رحم، والرحم كما سبق بيانه في الفصل الرابع هو أحد أعضاء الجهاز التناسلي للمرأة الذي تنمو فيه النطفة البشرية مما يعطي انطباعاً بأن المقصود يختص بالمرأة وحدها. كذلك فإن الآيات الأخرى السابق ذكرها والمتعلقة بهذا الموضوع، بسور الرعد وفاطر وفصلت، كلها تتكلم عن حمل الأنثى ولم تتعرض لقدرة الرجل على الإنجاب. إلا أننا نرى أن هذا التعجب ليس له ما يبرره. إذ أن الإنجاب نتاج لعملية الجماع المشتركة بين المرأة والرجل، وهذه سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه. وعلى هذا فلكي تنجب امرأة لابد وأن يكون زوجها قادراً على الإنجاب. لذا ومن هذا

(*) سورة لقمان، بالآية ٣٤

المنطلق فقد اكتفى النهج القرآني دائماً بذكر أحد طرفي الإنجاب النساء أو الرجال، أو ذكر ما يتعلق بأحدهما دون الآخر عند الحديث عن الجماع أو الإنجاب على أساس أنه ليس هناك أدنى حاجة إلى إيضاح أن المقصود يتناول الطرفين معا ما ذكر وما لم يذكر. ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في قوله تعالى: ***(أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون)*** [*].

وتوضح هذه الآية الكريمة أن الله الرحمن الرحيم الخبير بعباده قد خفف عن الصائمين، ورفع ما كان عليه الأمر في بداية الإسلام من تحريم الجماع بعد صلاة العشاء لما كان فيه من مشقة كبيرة عليهم مما يدفع ببعض الصائمين إلى أن يخونوا أنفسهم فرخص لهم الجماع بعد الإفطار وحتى يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. كذلك توضح الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى ينهي المسلمين عن الجماع أثناء فترة الاعتكاف.

وبالنظر إلى ألفاظ جميع الأوامر والنواهي التي وردت في هذه الآية الكريمة يتبين أنها كلها موجهة إلى رجال المسلمين، إلا أن هذا لا يحمل مطلقاً على الاعتقاد بأن هذه الأوامر والنواهي خاصة بالرجال دون النساء. فواضح أن هذه الأوامر والنواهي خاصة بكل من الرجال والنساء معاً لأنها تتناول المباشرة والجماع وهي عملية مشتركة بين كل من الطرفين. وفي هذا السياق فربما يقول البعض لكن الله سبحانه وتعالى ذكر النساء صراحة كما أشار إليهن ببعض

---

[*] سورة البقرة، الآية ١٨٧.

الألفاظ في نفس الآية. وهنا نقول إن هذا صحيح لكن ما نرمي إليه أن الله سبحانه وتعالى قد وجه كلامه المقدس كله إلى الرجال قاصداً الطرفين الرجال والنساء ولم يجد الله سبحانه وتعالى أدنى ضرورة لأن يعيد توجيه نفس الأوامر والنواهي إلى النساء مرة أخرى على نحو ما فعل قبلاً مع الرجال وذلك على الرغم من أن الترخيص بالرفث ليلة الصيام فيه من التخفيف على النساء مثل ما فيه من التخفيف على الرجال، كما أن النساء تعتكف أيضاً في المساجد مثل الرجال.

وقد يتساءل البعض عن حكمة الله الحكيم في توجيه كلامه المقدس إلى الرجال دون النساء في هذا الموضوع ولم يفعل العكس. ولعلي لا أخطئ القول إن ذكرت أن السبب ربما يرجع إلى أن زمام عملية المباشرة والجماع بين الرجل وامرأته في الأغلب الأعم بيد الرجل، وذلك من منطلق أن المرأة غالباً ما تكون أكثر حياء من الرجل، ولأن المرأة مأمورة بطاعة زوجها إذا طلبها ليواقعها، وكذلك لأن الرجل أقوى من امرأته في الأغلب الأعم، كما أن الرجل هو الفاعل، أما المرأة فمفعول فيها.

وعلى ضوء ما سبق بيانه، وبالعودة إلى قوله تعالى: *(ويعلم ما في الأرحام)*[*]، فإنه يمكن القول بأن أحد أبعاد مفهوم علم الله بما في الأرحام هو علمه سبحانه وتعالى كذلك بما في أظهر الرجال وذلك من منطلق أن الأرحام لا تحمل إلا من أظهر الرجال، وأنه من المستحيل الفصل بين علم الله بإمكانيات إنجاب الأرحام على النحو الشامل الذي أوضحناه وعلمه عز وجل بإمكانيات الإنجاب لأظهر الرجال. وبالنظر إلى حكمة الله سبحانه وتعالى في تخصيص الأرحام لفظاً عند الحديث عن الإنجاب، نقول إن ذلك ربما يرجع إلى أن أرحام

(*) سورة لقمان، بالآية ٣٤.

النساء منوطة بالحمل والإنجاب أكثر من أظهر الرجال. فالمرأة هي مهد الحرث كما ورد في قوله تعالى: *(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ)*(*). وإن رحمها هو مستقر النطفة البشرية والمسيطر عليها وحاميها ومغذيها إلى أن يكتمل نموها وتصير بشراً سوياً. كما أن الجماع يحدث بمهبل المرأة، وهو بمنطقة أسفل الرحم، وتمر الحيوانات المنوية بعد انتهاء الجماع بالرحم إلى أن تصل إلى قناة فالوب لإخصاب البويضة، ثم ترحل البويضة المخصبة بعد ذلك إلى الرحم لتستقر فيه، وذلك على نحو ما سبق بيانه بالفصل الأول.

وكما سبق إيضاحه بالنسبة لعلم الله بالإمكانيات الحالية والمستقبلية للأرحام على الإنجاب، فيشتمل علم الله سبحانه وتعالى بما في أظهر الرجال ضمن ما يشتمل على معرفة قدرة الرجال على الإنجاب. بل يتعدى ذلك إلى تقرير ما إذا كانت هذه الرجال ستنجب بالفعل أم لا. وفيما يلي توضيح ذلك وفقاً للحالتين المختلفتين المحتملتين في هذا الشأن، وهما كون ظهر الرجل صالح للإنجاب أو كونه عقيماً، لبيان مدى شمول علم الله سبحانه وتعالى وكماله في هذا الموضوع من ناحية ولإظهار مدى محدودية العلم البشري ونقصه من ناحية أخرى.

أ -العلم بأن الرجل سينجب بالفعل:

ويشتمل علم الله سبحانه وتعالى بما في أظهر الرجال على معرفة إن كان رجل ما صالحاً للإنجاب أم لا. ليس هذا فحسب بل إن الأمر يتعدى ذلك ليشتمل على معرفة ما إذا كان هذا الرجل الصالح للإنجاب سوف ينجب بالفعل أم لا... فربما كان رجلاً ما صالحاً للإنجاب إلا أنه لن يتزوج، ولن يتصل بامرأة، لينجب أو ربما يتزوج ولا ينجب لأسباب أخرى لا تتعلق بصلاحيته للإنجاب، إذ أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء عن هذا الزواج. وهذا بالطبع

(*) سورة البقرة، بالآية ٢٢٣.

من علم الله العليم وحده ولا يمكن للعلم البشري مهما تقدم أن يقطع بشيء في هذا الموضوع.

فربما يتوصل العلم البشري إلى أن شخصاً ما قادراً على الإنجاب إلا أن هذه النتيجة لا يمكن القطع بصحتها إلا إذا تزوج هذا الرجل وأنجب بالفعل. وإذا لم يتزوج هذا الرجل فلا يمكن القطع بشيء حول هذا الموضوع. وإذا افترضنا جدلاً قدرة العلم البشري على حسم الموضوع بشكل قاطع، فإنه لا يمكن له أن يصل إلى شيء حول ما إذا كان هذا الرجل سوف ينجب بالفعل أم لا. إذ كما سبق القول، ربما لا يتزوج هذا الرجل وأن تزوج فربما لا ينجب لأسباب أخرى غير صلاحيته للإنجاب.

ب- العلم بأن الرجل لن ينجب بالفعل:

ومن ناحية أخرى يشتمل علم الله العلام على معرفة ما إذا كان رجلاً ما غير صالح للإنجاب. إذ أن الله هو الخالق المصور الذي يعلم من خلق ومن ثم فهو الذي يعلم على وجه اليقين إن كان رجلاً ما عقيماً أم لا وهذا واضح من قوله تعالى: ***(وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)*** [*]. كما أنه يعلم على وجه اليقين إن كان عقم هذا الرجل يمكن شفاؤه بالعلم البشري البسيط أم لا. وإن كان كذلك، فهل سيشفى الرجل من عقمه هذا أم أنه لن يحاول الاستشفاء لدى الأطباء. كذلك يشتمل هذا العلم على معرفة ما إذا كان هذا الرجل سينجب بالفعل إن شفى أم لا؛ فربما لن يتزوج هذا الرجل أصلاً. أو ربما سيتزوج ولن ينجب لأسباب أخرى خارجة عن شفائه وصلاحيته للإنجاب.

وبالنسبة للعلم البشري فإن قدرته محدودة جداً في هذا المجال. فلا يستطيع هذا العلم البشري التقرير بشكل قاطع ما إذا كان رجلاً ما عقيماً أم لا

---

[*] سورة الشورى، بالآية ٥٠.

قبل زواجه وعدم إنجابه. وفي هذه الحالة ربما أمكن للعلم البشري تحديد أسباب هـذا العقـم علـى نحـو ظني وليس بشكل قاطع. وعلى الرغم من تحديد هذه الأسباب؛ فإن هذا العلم البشري لا يمكنه القطع بإمكانية الشفاء من هذا العقم في المسـتقبل أم لا، وكل ما يمكنه القيام به إنما مجرد محاولات قد تنجح وقد تفشل وذلـك مهمـا بلـغ هذا العلم من تقدم. فكثيراً ما قرر كبار الأطباء أن رجلاً ما سيشـفى من عقمه، ثم أثبتت الأيام عكس ذلك. وعلى العكس من ذلك فكثيراً ما قرر كبار الأطباء أن رجلاً ما لن يشفى من عقمه على الإطلاق لأن عقمه مزمن أبدي، ثم تأتي الأيام بعكس ذلك أيضاً ويفاجئ الجميع بإنجاب الرجل.

كذلـك فلـو فرضنا جدلاً أن العلم البشري قد أمكنه القطع بإمكانية شفاء الـرجل مـن عقمـه فـي المستقبل، فإنه لا يمكنه بحال من الأحوال القطع بما إذا كان هذا الرجل سيشفى بالفعل أم لا. فكما سبق القول فربما لا يعرض الرجل نفسـه علـى الأطباء للاستشفاء. وإن قام بذلك وشفاه الله بالفعل، فلا يمكن للعلم البشـري فـي هذه الحالة التأكد من أن هذا الرجل سينجب بالفعل... إذ ربما لا يتزوج هذا الرجل على الإطلاق، وإن تزوج فربما لا ينجب لأسباب أخرى غير قدرته على الإنجاب.

ولعـل مـا كـان فـي قصـة نبـي الله إبراهيم وزوجته سارة عليهما السلام وما كان في قصة نبي الله زكريا وزوجته عليهما السلام مثالان واضحان على الفارق الكبير بين علم الله العليم الشامل الكامل بما في أظهر الرجال والعلم البشري المحدود الناقص. إذ أن بشارة الله العليم لإبراهيم وزوجته عليهما السلام كانـت تنطوي على علم الله بما سيحدث من شفاء لرحم سارة عليها السلام، كما كانـت تـنطوي علـى ما سيحدث من شفاء لظهر إبراهيم عليه السلام في نفس الوقت. فبالإضافة إلى أن سارة عليها السلام كانت عاقراً لا تلد كان إبراهيم عليه

السلام في هذا الوقت شيخاً كبيراً لا يتوقع أحد أن ينجب في هذه السن المتأخرة. لــذا فقــد كــان تعجب زوجته سارة عليهما السلام من بشارتهم بالإنجاب شديداً وراجعاً إلى عدم قدرتها هي وزوجها على الإنجاب. ولقد ورد ذكر تعجب سارة علــيها السلام في القرآن الكريم في قوله تعالى: *(قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَــذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)*[*]. وعلى ذلك يمكن القول بأن البشارة بإسحاق عليه السلام كانت تنطوي على علم بما سيحدث لرحم سارة عليها السلام مــن الشفاء كما كانت تنطوي على علم بما سيحدث لصلب إبراهيم عليه السلام من شفاء أيضاً. إذ أن علم ما بأرحام النساء ينطوي كذلك وفي نفس الوقت على علــم مــا بأصــلاب أزواجهن. فعلم الله العليم لو كان مقصوراً على معرفة ما ســيحدث لــرحم سارة عليها السلام فقط دون معرفة ما سيحدث لصلب نبي الله إبراهــيم علــيه السلام ما أمكنه البشارة بإسحاق عليه السلام وحاشى لله ألا يعلم وألا يتمكن!!.

كذلك الحال في قصة نبي الله زكريا وزوجته عليهما السلام. إذ كان كل مــنهما عقيماً لا ينجب ولذا فإن البشارة بإنجاب يحيى عليه السلام كانت تنطوي علــى علــم بمــا ســيحدث لــرحم زوجــة نبــي الله زكــريا عليهما السلام مــن شفاء من العقم، كما كانت تنطوي في نفس الوقت على علم ما سيحدث من شــفاء لصــلب زكــريا عليه السلام أيضاً. وربما كان علم الله سبحانه وتعالى وبشــارته بمــيلاد نبــي الله يحيى عليه السلام تنطوي على مدلول لمدى شمول وكمال علم الله بما في ظهور الرجال أقوى بكثير من المدلول الذي انطوت عليه بشــارته عز وجل بميلاد نبي الله إسحاق عليه السلام. إذ أن زكريا عليه السلام كان عقيماً لا ينجب منذ صباه وهذا ما دعاه لأن يطلب من ربه أن يهب له وريثاً

---

[*] سورة هود، الآية ٧٢.

وذلــك علــى نحو ما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: *(فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي)*[1]. وبالإضافة إلى عقم نبي الله زكريا عليه السلام فقد كان وقت هذه البشارة قد بلغ من الكبر عتياً، وهذا يجعل من البشارة بالإنجاب شيئاً معجز بحق ولا يملــك الإتــيان بــه إلا مــن يعلم الغيب علم اليقين ومن هذا الغيب علم ما بالأرحــام ومــا ينطوي عليه من علم ما بأظهر الرجال. ويختلف الحال بعض الشــيء بالنســبة لبشارة الله سبحانه وتعالى لنبيه إبراهيم وزوجته سارة عليهما السلام إذ أن نبي الله إبراهيم عليه السلام كان قد أنجب قبل هذه البشارة نبي الله إسماعيل عليه السلام بحوالي ثلاث عشرة سنة؛ أي أنه عليه السلام لم يكن عقيماً وكــل مــا في الأمر أنه كان رجلاً مسناً وهذا ما ورد على لسان زوجته سارة علــيهما الســـلام في قوله تعالى: *(يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)*[2]. وعلى ذلك فيمكن القول بأن بشارة الله علام الغيوب بميلاد إســحاق علــيه الســلام علــى إعجازها الإلهي المتنزه على أن يرقى إليه العلم البشــري إلا أنهــا كانــت ذي مدلول أقل مما انطوت عليه البشارة بيحيى عليه السلام.

---

[1] سورة مريم، بالآيتين ٥ ، ٦.

[2] سورة هود، بالآية ٧٢.

الفصل الثالث

معرفة جنس الجنين بالرحم ليست

كشفاً لعلم اللّٰه



الفصل الثالث

معرفة جنس الجنين بالرحم ليست كشفاً لعلم اللّٰه

معرفة جنس الجنين بالرحم ليست كشفاً لعلم الله:

تبين من بعض ما تم استعراضه من جوانب علم الله بما في الأرحام أن علم الله العليم في هذا الشأن علم لا نهائي لا تحده حدود، فسبحان من لا يسع علمه أي متسع!!. ولعل السؤال الجوهري الذي يطرح نفسه تلقائياً في هذا الفصل الأخير هو: هل معرفة الإنسان لجنس الجنين بالرحم هي كشف لعلم الله بما في الأرحام؟. والإجابة على هذا السؤال تتضح من خلال دراسة النقطتين التاليتين فيما يتعلق بمعرفة الإنسان لجنس الجنين.

أولاً ـ عدم دقة وشمول علم الإنسان لجنس الجنين بالرحم.

ولإيضاح ذلك سنعرض فيما يلي تقييماً سريعاً لهذا العلم في ضوء المقارنة بين العلم البشري والعلم الإلهي في هذا الشأن. على أن تتم هذه المقارنة على ضوء الإجابة على الخمسة أسئلة التالية:

أ - هل يمكن معرفة جنس الجنين منذ بداية خلقه في الرحم؟.

ب- هل نتائج محاولات الكشف عن جنس الجنين دقيقة دائماً؟.

ج- هل يمكن الكشف عن جنس الجنين في جميع حالات الحمل؟.

د- هل لا تمس محاولات الكشف عن جنس الجنين سلامته؟.

هـ- هل لنتائج محاولات الكشف عن جنس الجنين مردود إيجابي على البشرية؟

وفيما يلي محاول الإجابة على هذه الأسئلة:

أ- هل يمكن معرفة جنس الجنين منذ بداية خلقه بالرحم؟

ولعل الإجابة على هذا السؤال توضح بجلاء الفارق الكبير بين علم الله عز وجل بجنس الجنين وبين نتائج محاولات العلم البشري. فقد تبين من الفصل الرابع أنه على الرغم من أن جنس الجنين قد حدده الله عز وجل منذ الأزل، أي

قبل أن يخلق في الرحم بزمن سحيق، لا يعلم قدمه إلا الله العليم الخبير. فإن العلم البشـــري يقف عاجزاً تماماً عن معرفة أي شيء عن أي جنين في هذه الفترة... إذ أن هـــذا العلم البشري لم يكن له وجود من أي نوع أو من أي درجة في هذه المرحلة، لسبب بسيط هو أن البشر أنفسهم لم يكونوا قد خلقوا بعد. وإذا تجاوزنا هـــذه المـــرحلة إلـــى مرحلة وجود الأجنة بالأرحام، وهي المرحلة التي يدعي الـــبعض أن العلم البشري قد توصل فيها إلى تحديد جنس الجنين، لتبين أنه على الرغم من أن جنس الجنين يتحدد منذ اللحظة الأولى للإخصاب والتي تتكون فيها النطفة الأمشاج، فإن أحداً غير الله لا يمكنه أن يعلم شيئاً عما إذا كان هذا الجنين الذي تكون منذ لحظة سيكون لذكر أم لأنثى. وأن أول من يعلم من مخلوقات الله هـــو الملك الذي يرسله الله بعد اثنتين وأربعين ليلة، أي بعد ستة أسابيع، ليخبره الله عـــلام الغيوب ويكتب على جبين الجنين كل شيء عنه وعن مستقبله بما في ذلـــك جنسه ذكراً كان أم أنثى. وإن كل محاولات الإنسان لكشف هذا الجنس لم تســـفر إلا عـــن بعـــض النتائج المحتملة إذا كان عمر الجنين لا يقل عن أربعة أشـــهر. وبصرف النظر عن مدى دقة هذه النتائج، فواضح أن العلم البشري لا يقـــوى بحـــال من الأحوال على أن يوضع موضع المقارنة مع علم الله سبحانه وتعـــالى. إذ أن علم الله علم أزلي، أي قبل أن يخلق الله الخالق العظيم أرحام أي أرحام!!.

ب – هل نتائج محاولات الكشف عن جنس الجنين دقيقة دائماً؟

يتبيـــن ممـــا سبق أن أوضحناه في الفصل الخامس أنه على الرغم من الخطـــوات العلمية التي تبذل في مجال تحديد جنس الجنين، إلا أن نتائجها ليست قطعـــية. أي أنهـــا تحـــتمل الخطأ وبالتالي لا يمكن الجزم بأن العلم البشري قد

توصل إلى نتائج حاسمة في هذا الشأن ومن ثم فلا مجال للمقارنة على الإطلاق بين هذا العلم البشري الظني وبين علم الله الدقيق المؤكد في هذا الشأن.

ج- هل يمكن الكشف عن جنس الجنين في جميع حالات الحمل؟

كذلــك تبيــن وجــود حــالات عديدة لا يكون للعلم البشري فيها حول ولا قوة ولا يمكنه كشف أي من أسرارها سواء بطريقة تحليل السائل الأمنيوسي أو بطريقة الأشعة. ومن هذه الحالات حالة كون الجنين خنثى غير حقيقية أصلها ذكر. وحالة كون الجنين خنثى غير حقيقية أصلها أنثى. كذلك ومن هذه الحالات أيضاً كون الجنين خنثى حقيقية له خصية ومبيض، بينما يكون الأعضاء الظاهرة إمــا لذكــر أو أنثى. وعلى ذلك فلا وجه للقول بأن العلم البشري قد توصل إلى تحديــد جــنس الجنيــن البشري على الإطلاق. كذلك لا وجه لمقارنة هذا العلم البشري الناقص بعلم الله علام الغيوب الكامل في هذا الشأن.

د- هل لا تمس محاولات الكشف عن جنس الجنين سلامته؟

وبالنســبة لأثر عملية الكشف لتحديد الجنس على مدى سلامة الجنين فقد تبيــن كذلــك مــن الفصــل الخــامس أن مــا توصــل إليه العلم البشري من وســائل لتحديد جنس الجنين تمس سلامة الجنين سواء بشكل مباشر وبشكل غير مباشر، وسواء تمت محاولة التحديد بطريقة تحليل السائل الأمنيوسي أو بطريقة الأشعة. ولا يعتد في ذلك بأي رأي آخر ربما يكون لبعض علماء الطب والأجنة. إذ أن التوصــل إلى نتائج مؤكدة حول سلامة الأجنة تتطلب ملاحظة الجنين بعد ولادته هو وذريته، إن كان له ذرية، ولعدة أجيال. فالسلامة الظاهرية للجنين، أن تبينــت، لا يمكن بحال من الأحوال أن تقوى دليلاً على أن وسائل العلم البشري فــي محاولــة التوصل إلى جنس الجنين لا تمس سلامته. وإذا كان هناك خطر

محتمل على الجنين الذي سوف تجرى عليه محاولات تحديد جنسه فهل يمكن القول بأن العلم البشري قد توصل إلى كيفية تحديد جنس الجنين؟!!. إن القول بأن العلم البشري قد توصل إلى كيفية تحديد جنس الجنين مع وجود خطر عليه ولو بصفة احتمالية كالقول بإمكانية تحديد مدى جودة ثمرة البطيخ لمعرفة طعمها ولونها، بسحب عينة منها بواسطة إبرة معينة مع احتمال فسادها بعد ذلك!!. فسبحان من يدري ويحمي... وسبحان من يعلم ويرحم!!.

هـ- هل لنتائج محاولات الكشف عن جنس الجنين مردود إيجابي على البشرية؟

وعلى الرغم من أن التجارب العلمية التي أجريت ولا تزال على الأجنة لتحديد جنسها كان هدفها في الظاهر خدمة البشرية، مثل محاولة وقاية الأجنة من بعض الأمراض التي قد تصيب الذكور بوأدها، ومع التحفظ الشديد على ذلك من الناحية الإسلامية إلا أن نتائج هذه المحاولات كان لها مردود سلبي خطير على البشرية، ويتمثل هذا المردود السلبي في النقطتين التاليتين:

١- توقع حدوث خلل في نسبة الذكور إلى الإناث التي حددها الله العليم الخبير لحكمة يعلمها الجميع. إذ سيترتب على الانتقاء الاختياري للأجنة وفقاً للجنس الذي يرغبه الوالدين إلى حدوث خلل مؤكد في هذه النسبة مما سينتج عنه تشوهات مجتمعية خطيرة. فعلى سبيل المثال وفي الآونة الأخيرة، حذرت بعض التقارير التي نشرت في الصين من أنه بحلول القرن القادم، يقصد بذلك هذا القرن الحادي والعشرين، فإنه أكثر من مائة مليون صيني لن يجدوا زوجات لهم وذلك راجع إلى أن التفضيل التقليدي لإنجاب الذكور قد خلق خللاً خطيراً في معدل نمو السكان هناك. ففي عام ١٩٦٤ سجلت مواليد الذكور ١٠٣ ذكراً مقابل ١٠٠ مولود أنثى، غير أنه في عام ١٩٩٣ أصبح معدل مواليد الذكور ١١٨ مولوداً مقابل ١٠٠ مولود أنثى. ويرجع

ذلـــك إلـــى أن سياسة الصين في نشر شعار طفل واحد لكل زوجين جعلت الصـــينيين يرغـــبون في أن يكون هذا الطفل ذكراً، ومن ثم فهم حريصون علـــى الكشف عن جنس الجنين في الرحم، فإن لم يكن ذكراً يشرع بعضهم في التخلص منه بالإجهاض!![*].

٢- توقـــع شـــيوع حـــالات الإجهاض المتكرر بين النساء الحوامل مما يضر بصحتهن وبصحة الأجنة التي سيقع عليها الاختيار بعد ذلك مما سينتج عنه دون شك أجيال أضعف باستمرار من سابقتها.

ونتيجة لهذا المردود السلبي الخطير على البشرية، اضطرت المجتمعات الغربـــية التـــي كانت ميداناً لإجراء هذه التجارب المشبوهة، والتي طالما تباهت بعلمهـــا المـــزعوم فـــي هـــذا الشـــأن، إلى أن تحذر من مغبة التمادي في هذه المحاولات وتطالب بسن تشريع يقصر محاولات الكشف عن جنس الجنين على تلك الحالات التي تحدث خارج الأرحام!!. أي أنهم بعد أن بذلوا الجهد الجهيد في ذلـــك عادوا يعترفون بخطورة هذا التوجه وهذا يوضح جانباً بسيطاً من الحكمة الإلهـــية لاحتفاظ الله سبحانه وتعالى لذاته العلية بعلم ما في الأرحام!!. فسبحان من يحفظ الأسرار ليحفظ الأنسال!!.

يتبين مما سبق عدم دقة وشمول علم الإنسان لجنس الجنين بالرحم. كما يتبين البون الشاسع بين علم الله عز وجل وعلم عباده البشر في هذا الشأن.

ثانياً ــ معرفة جنس الجنين بالرحم لا تقدم شيئاً عن ما هية الإنسان:

وبصـــرف الـــنظر عـــن مـــا سبق التوصل إليه في النقطة السابقة من أن علم الإنسان بما في الأرحام تعوزه الدقة وينقصه الشمول وبافتراض أن هذا

---

[*] جـــريدة الجمهورية، العدد رقم ١٥٢٨٦ سنة ٤٢، القاهرة، ١١ جمادى الأخرة عام ١٤١٦ هـــ: ٤ نوفمبر عام ١٩٩٥م.

العلـــم قـــد ارتقى وبلغ مبلغ الكمال دقة وشمولاً في المستقبل، فإن هذه الجزئية المـــتعلقة بمعرفة جنس الجنين بالرحم لن ترقى بحال من الأحوال لتصير كشفاً لغيـــب علم الله بما في الأرحام. إذ أن علم الله بما في الأرحام لا يقف عند علم هـــذه الجزئية البسيطة عن الأجنة بالأرحام، بل تتجاوزها إلى علم لا نهائي عن هـــذه الأجنة على نحو ما سبق ذكره من أمثلة لبعض جوانبه كالعلم بالإمكانيات الحالية والمستقبلية للأرحام على الإنجاب والعلم بأسرار تخليق الجنين والعلم بما فـــي أرحام جميع المخلوقات أو العلم بجميع أحوال الأجنة بالأرحام قبل وجودها بالأرحام وأثناء وجودها بالأرحام وبعد خروجها من الأرحام إلى الحياة الدنيا بل يـــتعدى هذا إلى العلم بأحوال أفراد هذه الأجنة وما سيؤولون إليه بالدار الآخرة. كذلـــك يشتمل علم الله بما في الأرحام ليشمل العلم بما في أظهر الرجال، وحقيقة الأمـــر لا تعتبر معرفة جنس الجنين بحال من الأحوال كشفاً للغيب المتعلق بعلم الله بمـــا فـــي الأرحـــام لأن معرفة جنس الجنين لا تقدم شيئاً يذكر عن ما هية الإنسان ووضعه المستقبلي سواء في الحياة الدنيا أو في الآخرة. فليس معنى أن جنيـــناً ما لذكر أو آخر لأنثى أن ماهية هذا الإنسان قد كشفت وأن شخصيته قد تحـــددت وأن وضـــعه المستقبلي قد أميط اللثام عنه. فليس هناك سمات شخصية معيـــنة تجمـــع كل الذكور، كما أنه ليس هناك سمات شخصية معينة تجمع كل الإنـــاث. فقد تختلف هذه السمات بين أفراد الجنس الواحد فيما بينهم اختلافاً بيناً، كمـــا قد تتشابه هذه السمات الشخصية بين البشر من الذكور والإناث. فبصرف الـــنظر عـــن كـــون الجنيـــن لذكر أو كونه لأنثى تختلف السمات الشخصية بما تتضـــمنه من صفات جسدية ونفسية وعقلية بين غالبية أفراد هذه الأجنة. بل أن هـــذا الاختلاف لا يتوقف فقط عند اختلاف الصفات، بل يتعدى ذلك إلى اختلاف الحركات والسكنات.

ويؤدي اختلاف الأفراد في سماتهم الشخصية إلى اختلاف في صفاتهم السلوكية ومن ثم يختلف الأفراد فيما بينهم اختلافاً كبيراً. فقد يختلف الأفراد فيما بينهم اختلافاً كلياً، فيتباينون كلية من حيث أفعالهم وردود أفعالهم في حياتهم الدنيا، فيختلف الفرد عن الآخر كما يقولون بالمعنى الدارج من ساسه لراسه croun heel، كما قد يختلف الأفراد فيما بينهم اختلافاً جزئياً، فيتباينون جزئياً في بعض أفعالهم وردود أفعالهم ويتفقون أو يتشابهون في بعضها الآخر. ويحدث هذا الاختلاف الكلي أو الجزئي بين الأفراد بصرف النظر عن ذكورتهم أو أنوثتهم.

وقد تختلف الصفات الجسدية لأفراد هذه الأجنة في المستقبل فيما بينها اختلافاً بيناً، سواء من حيث هيئة الجسم وسلامته وملامح الوجه ونوعية البروتين والأنسجة وبصمة الإصبع وبصمة الصوت وبصمة الشفاه وغير ذلك كثير. كذلك قد تختلف أفراد هذه الأجنة في المستقبل فيما بينها، من حيث الصفات النفسية فتتباين ما بين حسن إلى سيئ الطباع كما قد تختلف هذه الأفراد فيما بينها من حيث الصفات العقلية، فتتباين ما بين ذكي ومختل العقل وما بين حسن التفكير وعديم الإدراك.

ونتيجة لكل هذه الاختلافات في السمات الشخصية لأفراد هذه الأجنة في المستقبل فيتوقع أن تختلف صفاتهم السلوكية فيتباينون فيما بينهم، ما بين العابد والآبق والشريف واللص والكريم واللئيم والفعال المشارك والهامشي الخامل، وغير ذلك نجد اختلافاً في كثير من الصفات.

ونظراً لاختلاف غالبية البشر من حيث صفاتهم السلوكية وأعمالهم في الحياة الدنيا، كان طبيعياً أن يختلف مآلهم في الدار الآخرة. فمن البشر من هم من أهل الجنة ومنهم من هم من أهل النار. وكل طائفة من هاتين الطائفتين

تتباين كذلك فيما بينها؛ فمن أهل الجنة من سيكون في أعلا الدرجات ومنهم من سـيكون فـي أدناهـا. ومن أهل النار من سيكون في أسفل الدركات ومنهم من سيكون في غيرها.

أفـبعد كل هذا الاختلاف الموجود بين الأفراد بشكل أو بآخر وبدرجة أو بأخـرى يمكـن القـول بـأن معـرفة جنس الجنين هو كشف لعلم الله بما في الأرحام؟!!. أم أنه من المنطقي والمقبول القول بأن هذه المعرفة لجنس الجنين لا تمثل بحال من الأحوال كشفاً لهذا الغيب. هل من الممكن لمن عرف جنس جنين مـا بـأحد الأرحام على أنه ذكر مثلاً أن يستنتج منه كل هذه السمات الشخصية وسـيرة حياته في الدنيا ومآله في الآخرة؟. ربما يدعي البعض أن بمعرفة جنس الجنين وبالرجوع إلى السمات الشخصية والصفات السلوكية لأبيه أو لأخيه يمكن معـرفة مـا هـية شـخص الجنين في المستقبل، فهل هذا صحيح؟ وفي جميع الأحوال؟.. وهل يمكن من ذلك معرفة مآل هذا الابن في الآخرة أيضاً؟..

حقـيقة فإن تاريخ البشرية والواقع العملي يؤكدان غير ذلك بأمثلة عديدة لا حصـر لها. فعلى سبيل المثال أين ابن نوح من أبيه نوح عليه السلام؟ فالابن كافر والأب نبي ورسول !!. فابن نوح عليه السلام كفر بربه وعصى والده عليه السـلام وكـان على النقيض منه في حياته الدنيا فغرق مع من غرق بالطوفان وكـان مـع الكافريـن في الدنيا وفي الآخرة ويصور القرآن الكريم كفر الابن وعصـيانه لـربه وأبيه بقوله تعالى: ***(وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)***[*]. وعلى العكس من ذلك كان نبي الله إسماعيل عليه السلام، الذي

[*] سورة هود، بالآيتين ٤٢، ٤٣.

كان في خلقه وسلوكه مؤمناً صالحاً كوالده خليل الله إبراهيم عليهما السلام وكان مطيعاً لربه مطيعاً لوالده وليس أدل على ذلك من موقفه الإيماني والأخلاقي الفذ حيـــن أمـــر الله العزيز خليله إبراهيم عليه السلام أن يذبح ابنه. فعرض إبراهيم الأمـــر علـــى ابنه إسماعيل عليه السلام فوافق على أمر ربه وطلب أبيه امتثالاً وطاعـــة لـــربه ولأبيه ويقص الله عز وجل هذه الواقعة في القرآن الكريم بقوله تعـــالى: ***(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَـــاذَا تَـــرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)*** (*). ولقـــد كان إسماعيل عليه السلام بحق من الصابرين. كما استحق أن يصفه ربه في القرآن الكريم بأنه صادق الوعد ومن الأخيار في الدنيا وفي الآخرة. وشتان بيـــن ابنين لرسولين أحدهما على النقيض من أبيه يرفض أمره له لينجو والآخر على نمط أبيه يوافق على أمره له ليُذبح!!... شتان بين من يشقى بنار ومن ينعم بـــنور الوعد في الدنيا وفي الآخرة. أفبعد هذا التباين والاختلاف بين الأفراد من الجـــنس الواحـــد والـــدم الواحـــد يمكن لأحد أن يدعي أنه بمعرفة جنس الجنين وبالرجوع إلى السمات الشخصية والصفات السلوكية للأب مثلاً يمكن معرفة ما هـــية شخص هذا الجنين في المستقبل في الدنيا وفي الآخرة؟ هل لأحد أن يدعي بعد ذلك أن معرفة جنس الجنين هي كشف لعلم الله بما في الأرحام؟!!.

كذلـــك قد تختلف السمات الشخصية والصفات السلوكية للابن عن نظيرتها لأخيه على الرغم من انهما من نسل واحد وولدا وتربيا في بيئة واحدة. فشتان بين هابـــيل وقابيل ابني آدم عليه السلام. فهابيل كان أخاً تقياً يخاف ربه مطيعاً لوالده متصـــدقاً ومســـالماً بلسانه وبيده. أما قابيل فقد كان ذا نفس أمارة بالسوء، يعصى والده ويبخل بأنعم الله فسولت له نفسه قتل أخيه فقتله وباء بالخسران. ولقد قص الله

(*) سورة الصافات، الآية ١٠٢.

سبحانه وتعالى قصتهما بالقرآن الكريم، موضحاً بها التباين الكبير بين هذين الشقيقين ولدا الظهر الواحد والرحم الواحد في مسلكهما في الحياة الدنيا وفي مآلهما في الدار الآخرة وذلك بقوله تعالى: ***(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)***[١].

وشتان بين يوسف بن يعقوب عليهما السلام وبين أخوته الأحد عشر!!. ولقد صدق الحق جل وعلا إذ قال في محكم آياته: ***(لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ)***[٢]. فعلى الرغم من أن يوسف عليه السلام وأخوته أولاد رجل واحد هو نبي الله يعقوب عليه السلام إلا أنه اختلف كثيراً في سماته الشخصية عن بقية أخوته. فمن ناحية الصفات الجسدية أعطاه الله قواماً ممشوقاً صحيحاً قوياً، كما أعطاه جمالاً وبهاء في وجهه لم يعطه لأحد قبله من العالمين، وهذا على غير الحال مع بقية إخوته . ومن حيث صفاته السلوكية، فقد كان يوسف عليه السلام صديقاً وعفيفاً طاهراً وأميناً حفيظاً كما كان عليماً. بينما كان أخوته على النقيض منه. إذ اتسم سلوكهم بالتآمر والخداع والكذب وتملكتهم نزعة الحقد والشر إلى الحد الذي دفعهم إلى محاولة قتله، وهو أخوهم الصغير الذي خرج في حمايتهم يرتع ويلعب!!. أضف إلى ذلك فإن الاختلاف في السمات الشخصية والصفات السلوكية لم يكن موجوداً فقط بين يوسف عليه السلام وإخوته الأحد عشر بل كان موجوداً كذلك بين هؤلاء الأخوة وبين بعضهم البعض. ولعل هذا

---

[١] سورة المائدة، الآيات من ٢٧ إلى ٣٠.

[٢] سورة يوسف، الآية ٧.

يتضح من توجهاتهم النفسية المختلفة حيال التصرف في أخيهم. فقد اقترح بعض القاسية قلوبهم أن يقتلوا أخاهم يوسف عليه السلام كما رأى بعضهم الأقل قسوة أن يطرحوه أرضاً بدلاً من قتله ورأى أرحمهم ألا يقتلوه وأن يكتفوا فقط بإلقائه في الجب ليتيح له فرصة النجاة إذا ما التقطه بعض عابري السبيل فيأخذونه بعيداً عنهم، بل إن هذا الأخ الأخير دفعه دافع الرحمة لديه إلى أن يطلب من إخوته ودون أن يدري إعادة النظر في موقفهم من المؤامرة التي قرروها وبحث ما إذا كانوا سيفعلونها أم لا!!. ولعل ما جاء في القرآن الكريم حول هذه القصة القاسية يدل على اختلاف السمات الشخصية والصفات السلوكية لأبناء يعقوب عليه السلام، إذا قال تعالى: *(اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)*(*). وخلاصة القول فإن اختلاف السمات الشخصية والمسلك في الحياة الدنيا واختلاف المآل في الآخرة أمر طبيعي ووارد بين البشر بصرف النظر عن كونهم من جنس واحد أو حتى من نسل واحد.

ومن العجب أنه لا يوجد أخوان متماثلان في كل شيء، وأن ظهر للبعض تماثلهما. فإذا ما تشابها من حيث الهيئة وملامح الوجه، تختلف بعض سماتهما الشخصية الأخرى ولو في أقل القليل، حتى لو كان سلوكهما في حياتهما الدنيا واحداً، وكان مآلهما في الآخرة واحداً أيضاً. وليس أدل على ذلك من مثال الأخوان موسى وهارون عليهما السلام. فعلى الرغم من أن هارون كان كأخيه موسى عليهما السلام رجلاً صالحاً ونبياً مسبحاً ذاكراً لله وسلك نفس مسلك أخيه في الحياة الدنيا إذ كان وزيراً لأخيه ومطيعاً له شد من أزره واشترك معه في

(*) سورة يوسف، الآيتان ٩، ١٠.

تحمل تبعات رسالته ونشر دعوته الإيمانية وعلى الرغم من مآلهما الكريم في الآخرة أيضاً لأن الله سبحانه وتعالى قد أكرمهما وأنعم عليهما بالسلام عليهما ووصفهما بالمحسنين وبالمؤمنين في كتابه الكريم بقوله: *(سلامٌ على موسى وهارُونَ إنّا كَذلِكَ نجْزِي الْمُحْسِنِينَ إنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)*[1]... على الرغم من هذا التشابه في السلوك في الحياة الدنيا والتشابه في المآل في الآخرة إلا أنهما لم يكونا متماثلين تمام التماثل في سماتهم الشخصية!!. إذ كان هارون عليه السلام أهدأ صدراً وأفصح لساناً من أخيه موسى عليه السلام وهذا ما حدى بموسى عليه السلام أن يدعو ربه أن يرسل معه أخاه هارون وهذا واضح من قوله تعالى: *(قَالَ رَبِّ إنِّي أخَافُ أنْ يُكَذِّبُون وَيَضيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأرْسِلْ إلى هَارُونَ)*[2]. ولعل كون موسى عليه السلام أضيق صدراً من أخيه هارون عليهما السلام يتبين من موقفه مع أخيه عند عودته من جبل الطور بعد غياب أربعين ليلة عندما وجد قومه بني إسرائيل الذين استخلف عليهم أخاه يعبدون العجل!!. إذ امتلأ غضباً وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه. ويتبين هدوء صدر هارون عليه السلام من رد فعله الحليم في الاعتذار لأخيه عما حدث خارجاً عن إرادته، وفي طلبه بحنو وعطف أن يترك لحيته ورأسه وكان ذلك بتذكيرة بأنهما أبناء رحم واحد!! وذلك على نحو ما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: *(يَا ابْنَ أمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي)*[3].

وإذا كانت الأمثلة السابقة قد أوضحت بجلاء إمكانية وجود تباين كبير بين الأفراد من ذوي الجنس الواحد من الذكور، وذلك من حيث شخصية الإنسان

---

(1) سورة الصافات، الآيات من ١٢٠ إلى ١٢٢.

(2) سورة الشعراء، الآيتان ١٢ و ١٣.

(3) سورة طه، بالآية ٩٤.

ومسلكه في الحياة الدنيا ومآله في الآخرة، فإن هناك أمثلة كثيرة على وجود هذا التباين الكبير أيضاً بين الأفراد أصحاب الجنس الواحد من الإناث. وخير مثـال على هذا التباين الكبير ما ضربه الله العليم في قرآنه عن امرأة نوح عليه السلام وامرأة لوط عليه السلام كمثال للذين كفروا، وما ضربه سبحانه وتعـالى عـن امرأة فرعون ومريم بنت عمران رضي الله عنهما وأرضـاهما كمثـال للـذين آمنوا. فبالنسبة للمثال الأول قال الله تعالى: ***(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَـمْ يُغْنِيَـا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)***[١]. ولقد خانت كل من امرأة نوح عليه السلام وامرأة لوط عليه السلام زوجها النبـي المـؤمن فلـم يؤمنـا برسالتيهما ولم يشدا من أزرهما، بل كانا عوناً للكافرين عليهما. فـامرأة نـوح عليه السلام كانت تسفه من زوجها، وتدعي أنه مجنون، وتخبر الجبابرة من قوم نوح عليه السلام بأسرار زوجها وتطلعهم على من يؤمن برسالته. وكذلك الحال بالنسبة لامرأة لوط عليه السلام التي كانت تتجسس هي الأخرى علـى زوجهـا وتخبر من يأتون الفاحشة من قومها بأضياف زوجها ليخزوا نبي الله فيهم.

وبالنسبة للمثال الثاني الخاص بالنساء المؤمنات فقـد قـال الله تعـالى: ***(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَـتْ مِنَ الْقَانِتِينَ)***[٢]. فامرأة فرعون آسية بنت مزاحم لم يثنها عذاب زوجها وزبانيته لها عن الإيمان بربها، رب موسى وهارون عليهما السلام ودعت ربها أن تكون

---

[١] سورة التحريم، الآية ١٠.

[٢] سورة التحريم، الآيتان ١١ و ١٢.

فـــي جـــواره في الجنة وأن ينجيها من فرعون وعمله فاستجاب لها ربها وأراها بيـــتها فـــي الجـــنة ونجاها من السوء وقبض روحها في الجنة. وأما مريم بنت عمـــران فكانت طاهرة عفيفة شريفة، آمنت بربها وصدقت بقدره وما اختاره لها من شرف مقدس، وتقبلت شرع الله ومنهاجه فاستحقت أن تكون من القانتين.

وخلاصـــة القول فإن معرفة جنس الجنين في الرحم لا يمكن أن توصف على الإطلاق بأنها كشف لهذا الغيب على أساس أنه لو عرف جنس الجنين على أنـــه ذكر أو أنثى فإن هذا لا يفيد في معرفة سماته الشخصية وصفاته السلوكية، حـــتى لو استعين في ذلك بسمات وصفات آبائه وأخوته. فيمكن أن يشابه المرء أباه أو أخاه، كما يمكن أن يخلق الله عز وجل من ظهر العالم فاسداً، أو يخلق الله عز وجل من ظهر الفاسد عالماً، وسبحانه خالق كل شيء!!.

ولعـــل القـــول الفصـــل في هذا الموضوع يكمن في وصف الله سبحانه وتعـــالى ذريـــة نبيه إبراهيم وابنه اسحق عليهما السلام بقوله تعالى: *(وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْـــحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَـــالِمٌ لِنَفْسِـــهِ مُبِينٌ)*[*]. وواضح من هذا القول بأن البشر جميعاً يختلفون في كثير من سماتهم الشخصية وصفاتهم السلوكية في الحياة الدنيا كما يختلفون كذلك فـــي مآلهم في الآخرة، وذلك بصرف النظر عن كونهم من جنس واحد أو كونهم من جنسين مختلفين ذكوراً أو إناثاً إذ أن منهم دائماً من سيكون محسنا ومنهم من ســـيظلم نفســـه ولو انحدروا من نسل واحد!!. وإذا كانت صفة الذكورة أو صفة الأنوثة لا تفيد كثيراً في تحديد ماهية شخص الجنين في الحياة الدنيا، فإنها لا تفيد في قليل أو كثير في تحديد مآل شخص الجنين في الدار الآخرة، إذ أن المآل في هـــذه الـــدار يتوقف فقط على العمل في الدنيا ولا علاقة له على الإطلاق بجنس

[*] سورة الصافات، الآيتان ١١٢، ١١٣.

الإنسان أياً كان ولعل هذا يبدو واضحاً من قوله تعالى: *(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)*(*).

دليل قاطع من القرآن الكريم يحسم الجدل نهائياً

وعلى الرغم من أن هذا الجدل حول الإدعاء بكشف الغيب المتمثل في علم الله بما في الأرحام يدور منذ عدة سنوات، إلا أنه لم يحسم حتى الآن بصفة نهائية، على الرغم من منطقية الحجج التي تدحضه. وفي رأينا أن السبب في استمرار هذا الجدل حتى الآن يكمن في أن الحجج التي تدحضه على الرغم من منطقيتها يعوزها الدليل القاطع السليم، سواء بنص صريح من القرآن الكريم، أو بنص صحيح من السنة الشريفة. فعندما يثار جدل على هذا النحو حول موضع معين بالقرآن الكريم فإنه من الأصوب والأقطع للشك وتثبيتاً لليقين أن يدحض هذا الجدل بالقرآن الكريم ذاته في أي موضع آخر منه إذا كان ذلك ممكناً. لأنه عندما يقول الله العليم الخبير كلاماً في القرآن الكريم ويفسره البعض خطأ وينتج عن ذلك أن يتخذه بعض آخر أداة للطعن في صحة القرآن الكريم، فإن أي حجة تثار للدفاع عن التفسير الصحيح دون دليل قوي وقاطع يدعمها لا تلقى حينئذ قبولاً حسناً من الكثيرين، إذ أن ذلك سيفسره بعض السطحيين على أنه مجرد حجة لتبرير خطأ قد تم اكتشافه في القرآن الكريم والعياذ بالله. ومن ثم كان هناك أهمية قصوى للبحث والدراسة بالقرآن الكريم لاكتشاف الدليل على خطأ التفسير الأول وصحة التفسير الثاني.

فنظراً لأن الله سبحان وتعالى هو الذي قال النص الأول وهو سبحانه الذي قال النص الثاني الذي يفسر النص الأول فليس ثمة مجال للجدل. إذ أن

(*) سورة النحل، الآية ٩٧.

القرآن الكريم خرج كله من مشكاة واحدة. وهذا يوضح أهمية تفسير القرآن الكريم بالقرآن الكريم كأدق طريقة من طرق التفسير على الإطلاق. وذلك لأن الله العليم أعلم بمراد كلامه في القرآن الكريم كله سواء بالنص الأول أو بالنص الثاني أو بغيرهما من النصوص بأي موضع آخر في القرآن الكريم. كذلك تأتي أهمية تفسير القرآن الكريم بالقرآن الكريم من منطلق تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه، ومن ثم فعندما نكتشف الآن نصاً بالقرآن الكريم يفسر بوضوح النص الأول الذي ثار حوله الجدل يكون الإدعاء قد فند ويكون الجدل قد حسم لصالح القضية الإيمانية، لأنَ أحداً لن يكون بوسعه القول بأن هذا النص الثاني المفسر للنص الأول ليس من القرآن الكريم بحجة أن شيئاً قد أضيف أو حذف من هذا القرآن لتبرير الحجة والعياذ بالله. أضف إلى ذلك أن إيجاد الدليل الواضح من القرآن الكريم لحسم إدعاء ما حول نص من القرآن نفسه يأتي متسقاً مع ما هو معروف من خصائص القرآن الكريم من حيث إنه ينسجم مع بعضه البعض في جميع أجزائه بل ويكمل بعضه بعضاً. إذ أن ما أوجز في موضع قد فصل في موضع آخر وما خفي في موضع قد ظهر في غيره وما غمض في موضع وضح في موضع آخر.

الله تعالى يحسم دائماً القضايا المهمة بالقرآن الكريم:

وتتجلى حكمة الله عز وجل ورحمته بعباده في نهجه منهاجاً قويماً في قرآنه الكريم يتمثل في تضمين هذا القرآن البراهين الساطعة التي تحسم القضايا الإيمانية المهمة التي يعلم سبحانه وتعالى بعلمه الأزلي بأن جدلاً سوف يثار حولها. فنظراً لأن الله سبحانه وتعالى يعلم علم اليقين كل ما يدور في ملكوته في جميع الأزمان والأماكن فإنه بلا شك يعلم تمام العلم ما سيثار من جدل حول الادعاء بكشف الغيب المتمثل في علمه عز وجل بما في الأرحام. ومن ثم فقد

ضمن في القرآن الكريم نصاً واضحاً صريحاً يفند هذا الإدعاء ويحسم هذا الجدل، لعل عباده المؤمنين الغيورين على دينه القويم يلوذون بقرآنه الكريم، فيجاهدون بدراسته مزيداً من الدراسة فيجدوا فيه ما يحسم هذا الجدل ويحفظ للقضية الإيمانية قداستها، ولعل هذا من بين مقاصد الله الهادي بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(*).

ولقد كان هذا دوماً هو المنهج القويم لله عز وجل على مر الأزمان وفي كثير من المواقف الدينية التي يعلم بعلمه المسبق أنها ستكون أحد القضايا الخلافية بين عباده من البشر. ولعل خير مثالين يضربان في هذا الصدد ما جاء في القرآن الكريم في موضع آخر متعلقاً بمحمد رسول الله ﷺ وما جاء في القرآن الكريم في موضع آخر متعلقاً بعيسى عليه السلام.

فعندما أرسل الله رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، كان سبحانه وتعالى يعلم علم اليقين أن الإدعاء الأساسي الذي سيدعيه كفار مكة المكرمة للنيل من مصداقيته فيما يرويه عن ربه هو أن هذا القرآن الذي يوحي إليه من ربه هو من عنده، وأنه ليس سوى افتراء افتراه. وطبيعي أنه لكي تلقى هذه الحجة الباطلة قبولاً لدى البعض، فقد كان يستلزم الأمر أن يكون محمد ﷺ عالماً مشهوداً له بالعلم، إذ أن ما جاء به من قرآن يشتمل في كل آية منه على علم دقيق في شتى المعارف. لكن ما يدحض هذا الإدعاء ويئده في المهد هو حقيقة كون النبي ﷺ رجلاً أمياً لا يقرأ ولا يكتب. ومن ثم فقد تجلت حكمة الله الحكيم أن يوضح لسائر البشر ويذكرهم بهذه الحقيقة ومنذ اللحظة الأولى لميلاد دين الحق، وذلك بأن أوحى إلى عبده ورسوله جبريل عليه السلام بأن يطلب من نبيه محمد ﷺ أول ما يطلب منه أن يقرأ، فيرد النبي الأمي عليه

(*) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

بقوله ﷺ ما أنا بقارئ، وزيادة في إيضاح هذه الحقيقة كـرر جبريـل عليـه السلام هذا الطلب من النبي محمد ﷺ ليرد عليه النبي الأمـي ثـلاث مـرات بقوله ﷺ ما أنا بقارئ. ويوضح رد النبي ﷺ بقوله ما أنا بقـارئ أن النبـي لا يعرف القراءة وبالتالي لا يعرف الكتابة؛ إذ أنه من المعروف أن تعلم القراءة لابد وأن يسبقه تعلم الكتابة ومن ثم فمن لا يقرأ لا يكتب، وبذلك فقد وضح لسائر البشر أن هذا النبي الذي يوحى إليه بهذا العلم العزيز رجل أمي، ومن ثـم فـلا يمكن الادعاء بأن هذا القرآن من عنده وأنه افتراه. ولقد ضمن الله عـز وجـل القرآن الكريم هذه الواقعة بقوله تعالى: ***(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)***(*). وكانـت هذه الآيات أول ما نزل من القرآن الكريم!!.

كذلك اتبع الله سبحانه وتعالى نفس المنهج مع نبيه المسيح عيسـى بـن مريم عليه السلام. إذ أن الله سبحانه وتعالى يعلم بعلمه اليقيني ما سـيدور مـن خلاف بين البشر حول صفته ووضعه من حيـث كونـه عبـداً لله ونبيـاً لـه، أو من حيث كونه ابناً لله أو هو الله ذاته كما يدعي البعض والعياذ بالله. ومن ثم فقد اقتضت حكمة الله أن يكون أول ما ينطق به عيسى عليه السلام مـن كـلام حاسم لتلك القضية الإيمانية المهمة التي سيترتب عليها نجاح نبي مرسـل فـي رسالته وتصديق البشر له. فعندما أشارت أمه مريم رضي الله عنها وهي تحمله في المهد قال: إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وبذلك نـزه جنـاب ربـه سبحانه وتعالى من أن يكون له ولد وأقر بعبوديته لرب العالمين، وبرأ أمه ممـا نسب إليها من الفاحشة، وأوضح وضعه في الحياة الدنيا بكونه نبياً من أنبياء الله. ولقد ذكر الله الحكيم هذه الواقعة في القرآن الكريم بقوله تعالى: ***(فَأَشَارَتْ إِلَيْـهِ***

(*) سورة العلق، الآيات من ١ إلى ٥.

قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً)[1]. وعلى الرغم من أن هذا الموقف قصد به حسم الخلاف بين قوم عيسى بن مريم عليه السلام إلا أن ذكره على هذا النحو وبهذا التفصيل في القرآن الكريم يؤكد منهج الله وحكمته في حسم القضايا المهمة بالقرآن الكريم، ليكون القرآن بذلك معيناً إيمانياً لا ينضب وليكون هادياً لجميع البشر وحاسماً لأي جدل قد يثار في المستقبل.

حسم جدل كشف الغيب من خلال قصة امرأة عمران ووليدتها مريم عليهما السلام:

ولعل الدليل القاطع الذي يحسم هذا الجدل المفتعل حول الادعاء بكشف الغيب، المتمثل بعلم الله بما في الأرحام، حسماً نهائياً موجود بوضوح في القرآن الكريم!!!. ولبيان ذلك نوضح ما جاء في القرآن الكريم بسورة آل عمران حول ميلاد مريم ابنة عمران رضي الله عنها وأرضاها[2].

فقد كانت امرأة عمران، حنه بنت فاقوذ، امرأة لا تحمل فرأت ذات يوم طائراً يسير ووراءه فراخه فحنت إلى الولد، فدعت ربها أن يهبها ولداً فاستجاب لها ربها، فحملت من زوجها عمران الذي توفى بعد ذلك أثناء فترة الحمل وقبل الوضع. فلما شعرت بعلامات الحمل فرحت لذلك فرحاً شديداً وتمنت أن يكون ما في بطنها ذكراً، أو أنها ظنت ذلك، فنذرت لله أن يكون محرراً وعتيقاً خالصاً من أمور الدنيا وشواغلها متفرغاً لعبادة الله وخدمة بيته... بيت المقدس، وذلك

---

(1) سورة مريم، الآيتان ٢٩، ٣٠.

(2) إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن الكريم العظيم، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٢٥٩، ٣٦٠.

، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تفسير الجلالين، كتاب الشعب، دار الشعب، القاهرة، عام ١٩٧٠م، ص ٥٧.

على نحو ما ذكر في القرآن الكريم إذ قال تعالى: *(إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)*[١].

فلما وضعت السيدة حنه زوجة عمران ما في بطنها، وجدتها أنثى فحزنت لذلك حزناً شديداً على أساس أنها لن تستطيع أن تفي بنذرها على أساس أن الذكر الذي طلبت ليس كالأنثى التي وضعت. إذ أن الذكر أكثر قوة وجلداً ومثابرة على العبادة وأكثر قدرة وملاءمة على خدمة بيت الله من الأنثى لضعفها ولعورتها ولما يعترها من الحيض وغيره. حينئذ خاطبت امرأة عمران ربها معتذرة قائلة على نحو ما ورد في قوله تعالى: *(فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ)*[٢].

هل كان علم امرأة عمران بجنس وليدتها علماً بماهيتها؟

يلاحظ مما سبق أن امرأة عمران قد حزنت حزناً شديداً لوضعها أنثى بدلاً من الذكر، على أساس أنها كانت قد نذرت وليدها لله وتصورت أنها بهذه الوليدة لن تستطيع أن تفي بنذرها. أي أن امرأة عمران ظنت أن موضوع النذر هذا قد انتهى وحسم بمعرفتها جنس مولودتها!!. هذا ما كان من امرأة عمران أما ما كان لمريم بعد ذلك فقد كان شيئاً آخراً.

فأولاً ــ تقبل الله العليم المنان الوليدة من أمها كنذيرة، بصرف النظر عن كونها أنثى وليست ذكراً. ليس هذا فحسب بل أن قبول الله لهذه النذيرة لم يكن قبولاً عادياً، بل كان قبولاً حسناً وهذا واضح من القرآن الكريم في قوله تعالى: *(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ)*[٣].

---

[١] سورة آل عمران، الآية ٣٥.

[٢] سورة آل عمران، بالآية ٣٦.

[٣] سورة آل عمران، بالآية ٣٧.

وثانياً ــ تولى الله سبحانه وتعالى إنباتها ورعايتها فأنبتها نباتاً حسناً، بأن جعلها في أحسن صورة وأبهى منظراً وأجل وقاراً، وأسكنها المحراب لتكون في معية عباده المخلصين المكرمين، لتتعلم منهم العلم النافع والدين القويم وتتطبع بالطباع السامية. وكان هؤلاء العباد يتنافسون أيهم يكفلها، فكفلها كبيرهم وسيدهم وعالمهم وإمامهم ونبيهم زكريا عليه السلام. ولقد أغدق الله الرزاق عليها من خيراته الكثير، لدرجة تعجب معها نبي الله زكريا عليه السلام. فكلما دخل عليها نبي الله مكانها في المحراب وجد عندها كثيراً من الخيرات والرزق، إذ كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء مثلاً. وتتضح عناية الله الكريم بمريم رضي الله عنها من قوله تعالى: ***(وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)***[1]. كذلك جبلها الله سبحانه وتعالى على التطهر وكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب على العمل لما هيأها الله لها من أمر مقدس كريم، ومن ثم فقد أختارها الله عز وجل وفضلها على نساء العالمين، وهذا واضح من قوله تعالى: ***(وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)***[2].

وثالثاً ــ أن الله الحكيم قد شرفها بأمر فيه محنة لها، ثم رفعها إلى مكانة عالية في الدنيا وفي الآخرة. إذ خصها الله بأمر لم يخص بمثله أنثى قبلها ولا بعدها. فقد أظهر الله القادر الخالق البارئ المصور في هذا

---

(1) سورة آل عمران، بالآية ٣٧.

(2) سورة آل عمران، الآيتان ٤٢، ٤٣.

الأمر جانباً من قدرته الغير محدودة، حيث خلق بهـا ولـداً مـن غيـر أب هو المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام. ولقد جاء هذا الحدث الجليل في القرآن الكريم في قوله تعالى: *(إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ)*[1].

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو.

هل كان علم امرأة عمران بجنس وليدتها علماً بماهيتها؟... واضـح أن الإجابة على هذا السؤال هي بالنفي القاطع. فقد كانت تتصور أن كون وليـدتها أنثى يجعلها غير صالحة للوفاء بالنذر، إلا أن ربها تقبلها كنذيرة قبـولاً حسـناً وأنبتها نباتاً حسناً وأعدها لمهمة مقدسة سمت بها على نساء العالمين. ومن ثـم يمكن القول بكل وضوح أن حزن امرأة عمران على ولادتها لأنثى لم يكن له ما يبرره لو كانت تعلم الغيب، ومن ثم فإن موقفها عند الولادة كـان راجعـاً إلـى قصور علمها كبشر.

حتى لو تأكد العلم بجنس الجنين فليس ذلك علماً بماهيته:

يتبين من قصة امرأة عمران ووليدتها مريم رضـي الله عنهـا السـابق تناولها بالدراسة أنه حتى لو تأكد جنس الجنين فإن ذلك لا يسعف على الإطلاق في معرفة ماهيته.. فمن كان أكثر علماً بجنس الجنين من امرأة عمران، التـي رأت بعينها جنينها بعد أن اكتمل نموه ووضعته وليد؟ لقد رأت امـرأة عمـران وتأكدت بنفسها من جنس مولودتها بل واسمتها مريم!! وذلك على نحو مـا ورد في القرآن الكريم، في قوله تعالى: *(فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ)*[2]، ومع ذلك فقد

---

[1] سورة آل عمران، بالآية ٤٥.

[2] سورة آل عمران، بالآية ٣٦.

تبين فيما بعد، أنها مع هذا العلم لم تكن تعلم شيئاً عن هـذه الوليـدة وماهيتهـا وسيرتها في الدنيا ومآلها في الآخرة.

دقة العلم بجنس الجنين بالرحم لا ترقى بحال إلى دقة العلم بجنس الوليد:

سبق بيان أن العلم بجنس الجنين بالرحم تعوزه الدقة وينقصه الشـمول. فمن ناحية، وكما سبق إيضاحه، فإن نتائج محاولات الكشف عن جنس الجنـين ليست دقيقة دائماً، كما أنه لا يمكن الكشف عن جنس الجنين في جميع حـالات الحمل ومن ثم فمن الطبيعي القول بأن علم جنس الجنين بالرحم هو علم ظنـي ناقص وبالتالي لا يمكن مقارنة المستوى المتواضع جداً لدقته بالمستوى الكبيـر لدقة العلم بجنس الجنين بعد الوضع وحتى لو افترضنا جـدلاً أن العلـم بجـنس الجنين قد تقدم جداً لدرجة تصل إلى علـم اليقـين with certainty of mind (we would beware)،. فالعلم بجنس الجنين بعد الوضع هو علم مـن يـرى بعين اليقين we see it with certainty of sight وهو أرقى وأدق من علـم اليقين، بل هو أرقى وأدق درجات العلم على الإطلاق.

العلم بجنس الجنين بالرحم ليس إذن كشفاً لعلم الله بما في الأرحام:

تبين مما سبق أنه حتى لو تأكد العلم بجنس الجنين وذلك بالانتظار حتى اكتمال نموه بالرحم وخروجه منه إلى الحياة الدنيا فإن هذا العلم ليس علماً بماهية الجنين ومن ثم فليس هذا على الإطلاق كشفاً للغيب المتمثل في علم الله بما فـي الأرحام. وهذا ما كان من امرأة عمران التي رأت مولودتها وعلمـت جنسـها برؤيتها بعين اليقين، ومع ذلك حزنت لكونها أنثى وليست ذكراً... إلـى آخـر القصة.وإذا كان التأكد من جنس الجنين بعد ولادته برؤيته وليداً لا يقـدم شـيئاً يذكر حول علم ما في الأرحام فكيف الحال... كيف الحال بالنسبة للعلم نـاقص الدقة غير الشامل لجنس الجنين أثناء وجوده بالرحم وقبل ميلاده؟. هل يقدم هذا

العلم الظني شيئاً عن ماهية الجنين؟.. هل يعتبر هذا العلم غير الدقيق كشفاً للغيب المتمثل في علم الله بما في الأرحام؟

وخلاصة القول، فإن محاولات الكشف عن جنس الجنين بالرحم وبافتراض نجاحها وتقدمها العلمي المطلق في المستقبل، ومهما وصلت من دقة فإن مستوى دقتها لا يمكن أن يصل إلى مستوى دقة العلم بجنس الجنين بعد ميلاده وخروجه من الرحم. وحتى لو وصل إلى مستوى هذه الدقة فلن يقدم حينئذ شيئاً في مجال الكشف عن ماهية الجنين أو ماهية المولود. وهذا بالطبع يحسم الجدل الدائر حول الادعاء بكشف الغيب المتعلق بعلم الله بما في الأرحام. إذ أن الأمر ليس أمر الكشف عن جنس الجنين من عدمه. كما أن الأمر ليس دقة هذا الكشف أو عدم دقته. فحتى لو تأكد الكشف عن جنس الجنين في المستقبل وبدرجة دقة مائة في المائة، فإن هذا ليس بحال من الأحوال المقصود من الغيب المتعلق بعلم الله بما في الأرحام. فالكشف عن جنس الأجنة بالأرحام شيء وعلم الله بما في الأرحام شيء آخر تماماً، والمقارنة بينهما كالمقارنة بين العبد وربه!!.

والقول الفصل من القرآن الكريم

ويأتي القول الفصل دائماً من القرآن الكريم!!. ويتمثل هذا القول الفصل في سورة آل عمران حيث يقول الله تعالى ***(فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى)***(*). ويتضح من هذا النص الكريم وجود جملة اعتراضية نصها ***(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ)*** وتقرأ بتسكين التاء على أنها من قول الله عز وجل. وتوضح هذه الجملة الاعتراضية بالآية السابقة

(*) سورة آل عمران، الآية ٣٦.

أن الله عالم الغيب بما لديه من علم شامل بكل شيء في ملكوته، لم يرض عن رد فعل امرأة عمران حيال وضعها لوليدة أنثى وظنها بعدم أهلية هذه الوليدة للوفاء بنذرها الذي قطعته على نفسها، وذلك من منطلق عدم علمها بالغيب، وبناء تصورها للمستقبل على أساس أنه ليس الذكر كالأنثى. ويرجع عدم رضى الله العليم الخبير على رد فعل أم مريم رضي الله عنهما وأرضاهما إلى علمه تعالى ويقينه بأن ماهية الوليدة مريم وسيرتها في الحياة الدنيا ومآلها في الآخرة ستكون أفضل وأسمى بكثير مما تمنت امرأة عمران لما في بطنها وما نذرته له. وأن كون الوليدة أنثى وليست ذكراً لا علاقة له بحال من الأحوال بعلم الغيب المتعلق بها. ومن ثم فلا يدل تحديد جنس الجنين أو الوليد أي دلالة على قدرة أو شأنه في المستقبل. بل إن الله الخالق البارئ المصور يصور عباده في الأرحام كيف يشاء ليكون كل مخلوق ميسراً لما خلق له.

وعلى ذلك فإن قول الله عز وجل في الآية السابقة من سورة آل عمران في عبارة *(واللَّهُ أعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ)* يدل بما لا يدع مجالا للشك على أن الله العليم الخبير يوضح لامرأة عمران ولكافة خلقه، من البشر بأن معرفة جنس الجنين والتأكد منه ليس هو المقصود بعلم الله في خلقه، سواء كانوا مواليد خارج بطون أمهاتهم أو كانوا لا يزالون أجنة بالأرحام، لأن ذلك لا يدل على العلم بالغيب المتمثل في معرفة ما هية الإنسان وسيرته في الحياة الدنيا ومآله في الآخرة. وبديهي أنه إذا كان العلم بجنس الجنين بعد نموه وخروجه من الرحم وليداً، والذي يعتبر علماً مؤكداً، كما في حالة وضع امرأة عمران لمريم رضي الله عنها، لا يمثل شيئاً من علم الغيب الذي يعلمه الله عن هذا الجنين، ولا يسعف في معرفة شيء عن هذا الغيب، فمن باب أولى فالعلم بجنس الجنين بالرحم، والذي يؤخذ عليه كثير من المآخذ التي سبق ذكرها في حينها والذي تعوزه الدقة

وينقصــه الشــمول، لا يمــثل أي شــيء من علم غيب الله المتعلق بهذا الجنين بالــرحم، والذي يقصده الله بقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾[1] وأنه حتى لو ارتقــى العلم البشري في المستقبل وأصبح في مقدور البشر العلم بجنس الجنين بالرحم على نحو سليم وشامل وكامل الدقة، فإن هذا العلم لن يمثل شيئاً من علم الله بما في الأرحام!!. وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى نقطتين مهمتين تتعلقان بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾[2] هما:

أ – واضــح من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾[3] أن الله عز وجل الذي يقــدر كــل شيء بقدره قد استخدم في اعتراضه على موقف امرأة عمران كلمــة (أعلــم) وهــي مشــتقة مــن كلمة (العلم) التي هي في نفس الوقت أصــل كلمــة (يعلــم) التــي استخدمها الله في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَــامِ﴾[4] وفــي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾[5] وهي كذلك أصل كلمة (بعلمه) التي استخدمها الله في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَــعُ إِلَّــا بِعِلْمِهِ﴾[6]. وكون الله سبحانه وتعالى لم يستخدم كلمة أخرى غــير كلمــة العلم ومشتقاتها في أي من هذه الآيات، فمثلاً لم يقل الله تعالى يــدري أو يخبر أو يفهم ما في الأرحام فإن هذا يدل دلالة واضحة على أن المقصــود في كل هذه الآيات هو العلم وليس أي شيء آخر مختلف عنه أو مشابه له. وواضح من سياق كل هذه الآيات أنها تتفق جميعها على ارتباطها

---

[1] سورة لقمان، بالآية ٣٤.

[2] سورة آل عمران، بالآية ٣٦.

[3] سورة آل عمران، بالآية ٣٦.

[4] سورة لقمان، بالآية ٣٤.

[5] سورة الرعد، بالآية ٨.

[6] سورة فاطر، بالآية ١١، سورة فصلت، بالآية ٤٧.

بمفهوم واحد لهذا العلم هو علم الله العليم بما في الأرحام. ومن ثم فإن هذه الآيات تنسجم مع بعضها البعض، وتكمل بعضها البعض بل وتفسر بعضها البعض إذ أن ما خفي في أحدهما يظهر في الأخرى وهذا كما سبق إيضاحه من أسباب دقة طريقة تفسير القرآن بالقرآن.

وحيث تبين مما سبق أن قوله تعالى: *(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ)*[١] يقصد به أن العلم بجنس الوليد ليس معناه العلم بالغيب المتعلق بهذا الوليد، فإن نفس المعنى ينطبق تماماً على قوله تعالى: *(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)*[٢] وكذا بقية الآيات الكريمات السابق ذكرها، والتي تتعلق بعلم الله بما في الأرحام. أي أن العلم بجنس الجنين بالرحم، وأن صح، ليس على الإطلاق هو علم الغيب المتعلق بعلم الله بهذه الأجنة بالأرحام.

ب- أن هذه العبارة *(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ)* جاءت في الآية الكريمة رقم ٣٦ من سورة آل عمران كجملة اعتراضية في سياقها. فقد جاءت هذه العبارة فاصلة بين كلام امرأة عمران، مجزأة إياه إلى جزئين. الجزء الأول يصف جنس المولودة بأنها أنثى، وينطوي على الاعتذار إلى الله سبحانه وتعالى على عدم القدرة على الوفاء بالنذر الذي قطعته على نفسها، بأن يكون ما في بطنها محرراً لله ولخدمة بيته. والجزء الثاني يوضح السبب الذي دفع امرأة عمران، من منطلق عدم علمها بالغيب، إلى اليأس من الوفاء بنذرها لله وهو كون أنه ليس الذكر كالأنثى. وكون هذه العبارة جملة اعتراضية وفي هذا الموقع من سياق قول امرأة عمران بالذات، فإن هذا يؤكد أن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يدع

---

[١] سورة آل عمران، بالآية ٣٦.

[٢] سورة لقمان، بالآية ٣٤.

أي مجال للشك بأن كون المولودة أنثى لا يمثل أي شيء في ماهية الوليدة أو وضعها في المستقبل، ومن ثم فلا مجال للحزن أو الاعتذار عن عدم الوفاء بالنذر. فالله سبحانه وتعالى الذي أنزل القرآن بالحق والميزان لم يشأ أن يجعل تأكيده هذا في نهاية قول امرأة عمران فيكون أقل مدلولاً، بل إنه سبحانه قطع قولها بعد اعتذارها لجنابه مباشرة وقبل أن تبدي أي أسباب لهذا الاعتذار، ليقول لها إن اعتذارها ليس له ما يبرره إذ لم يكن مطلوباً منها أصلاً. وعلى ذلك فإن كون هذه العبارة بالذات جملة اعتراضية، وفي هذه الواقعة بالذات وفي هذا الموقع من سياق هذه الآية، ليؤكد بما لا يدع مجالاً لأي شك بأن العلم بجنس الجنين أو حتى العلم بجنس المولود بعد ولادته لا يمثل أي شيء بالنسبة لماهية هذا الجنين أو بسيرته بالحياة الدنيا أو بمآله بالآخرة، ومن ثم لا يمثل أي شيء بالنسبة لعلم الله سبحانه وتعالى عن خلقه سواء كانوا بالأرحام أو بعد خروجهم من بطون أمهاتهم!!.

بعد آخر للتفسير يدعم المعنى.

وتنص بعض التفاسير القرآنية على أن هناك قراءة أخرى لعبارة *(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ)*[1] غير القراءة الأولى، التي تقرأ بتسكين التاء على أنها من قول الله عز وجل. وتتمثل القراءة الثانية برفع التاء بالضمة على أنها تاء المتكلم فتقرأ *(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ)*[2]، فتكون العبارة من سياق قول امرأة عمران. وحقيقة الأمر فإنه سواء كانت العبارة من كلام الله عز وجل أو كانت من كلام امرأة عمران فإن هذا لا يغير من المعنى شيئاً بل ربما يدعمه.

---

(١) سورة آل عمران، بالآية ٣٦.

(٢) سورة آل عمران، بالآية ٣٦.

فيفهم من سياق هذه القصة، ووفقاً للقراءة الثانية، أن امرأة عمران كانت امرأة مؤمنة بربها أشد الإيمان. يدل على ذلك كونها امرأة مستجابة الدعوة، إذ استجاب ربها لدعوتها بأن ترزق الولد ورزقها بما هو أفضل مما طلبت. كذلك فهي امرأة حامدة شكورة. إذ أنها نذرت ما في بطنها لله ولخدمة بيته حمداً وشكراً لله على استجابته عز وجل لدعوتها وحملها. كذلك فهي امرأة طيبة طاهرة، لكون الله الحكيم قد اختارها لميلاد من اصطفاها على نساء العالمين مريم رضي الله عنها أم المسيح عيسى عليه السلام. كذلك فامرأة عمران امرأة توابة مستغفرة، بدليل اتجاهها للاعتذار والاستغفار لربها على ما ظنته عدم القدرة على الوفاء بالنذر، وذلك على الرغم من أن الأمر ليس بيدها. ومن الطبيعي أن امرأة مثلها، مؤمنة صادقة الإيمان، وهذه صفاتها، لابد وأنها كانت تعلم تماماً ضآلة علمها وقدرتها بالمقارنة بعلم الله وقدرته، ولقد تجلى ذلك واضحاً جلياً في قصة ميلادها لوليدتها مريم رضي الله عنها.

فعندما وضعت امرأة عمران وليدتها، وتبين لها أنها أنثى وقد كانت تظنها ذكراً، دفعها إخلاصها الشديد لعبادة ربها إلى المسارعة بالاعتذار إليه بعد أن ظنت بأن هذا الميلاد سيكون مانعاً لها عن الوفاء بما نذرت به. ونظراً لإيمانها الشديد ولعلمها أن كون المولود ذكراً أو أنثى لا يمثل بالنسبة لها كشفاً للغيب، ولا يمثل شيئاً بالنسبة لعلم الله بخلقه، عادت فاستدركت قائلة: ﴿*وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ*﴾(*). وواضح أن هذه العبارة، إن صحت هذه القراءة، تكون جملة استدراكية قصد بها الاعتذار مرة أخرى عن ما ظنته، ولو للحظة واحدة أنه كشف لها بعلم الله في خلقه!!.

(*) سورة آل عمران، بالآية ٣٦.

وإن صحت هذه القراءة التي تنطق (وَضَعَتُ) بضم التاء فإن وضع هذه العبارة (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتُ)[1] في هذا الموضع من الآية رقم ٣٦ من سورة آل عمران يكون وضعاً في محله. إذ أن الاعتذار هذه المرة بالاستدراك من امرأة عمران لربها، جاء بمثابة استغفار منها لربها عما قالته في البداية، إذ جاءت هذه العبارة الاستدراكية بعد قوله تعالى على لسان امرأة عمران (رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى)[2] والذي يفيد بأن مولودتها لن تصلح للوفاء بالنذر لأنوثتها، وكأنها بذلك قد كشفت علم الغيب المتعلق بعلم الله بخلقه. كذلك فإن هذه العبارة الاستدراكية جاء بعدها مباشرة قوله تعالى على لسان امرأة عمران: (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى)[3] والذي يفيد ذكرها سبب ظنها الخطأ، وهو علمها بأنه ليس الذكر كالأنثى، لعل الله سبحانه وتعالى يتقبل اعتذارها لظنها الخطأ بأنها لن تكون قادرة على الوفاء بنذرها له.

وتوضح هذه العبارة الاستداركية في هذه الحالة أن امرأة عمران قد أخطأت أولاً لظنها بأن معرفة جنس وليدتها كان بمثابة معرفة لماهيتها ومستقبلها، وهو ما لا يعلمه إلا الله، ومن ثم عادت مسرعة فاستدركت معتذرة إلى ربها قائلة لجنابه إنك يا رب أعلم بما وضعت وأعلم بماهيتها ومستقبلها وسيرتها في الحياة الدنيا ومآلها في الآخرة وإن علمي بجنسها ليس على الإطلاق كشفاً لغيبك المتمثل بعلمك بخلقك.

---

[1] سورة آل عمران، بالآية ٣٦.

[2] سورة آل عمران، بالآية ٣٦.

[3] سورة آل عمران، بالآية ٣٦.

وبديهي كما سبق الذكر، أنه إذا كان العلم بجنس المولود بعد وضعه ليس كشفاً لغيب الله المتعلق بعلمه بخلقه فإنه، من باب أولى، لا يكون العلم بجنس الجنين بالرحم كشفاً لهذا الغيب.

وواضح من هذا الموقف الإيماني لامرأة عمران وفي هذا العصر السحيق، الذي يرجع إلى أكثر من عشرين قرناً خلت من الزمان، أن الطبيعة الإيمانية الصادقة للبشرية كانت تدرك تمام الإدراك بأن الغيب المتعلق بعلم الله العليم في خلقه لا يعلمه إلا الله وحده. صحيح أن الطبيعة البشرية المتعجلة للإنسان والواضحة من قوله تعالى: *(خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ)*(*) اشتاقت بين الوقت والآخر لمعرفة جنس الجنين بالرحم إلا أن هذا الاشتياق كان دائماً لمجرد معرفة جنس الجنين فقط وذلك من منطلق أنه ليس الذكر كالأنثى. إلا أن البشرية، ومنذ هذا الزمن السحيق على الأقل، كانت تدرك تمام الإدراك أن مجرد التوقع الاحتمالي لجنس الجنين بالرحم أو حتى التأكد من هذا الجنس بعد اكتمال نمو الجنين بميلاده وخروجه من بطن أمه لا يمثل على الإطلاق كشفاً لعلم الغيب المتمثل في علم الله عن خلقه.

ويتبين مما سبق، أن المفهوم الصحيح لعلم الله بخلقه سواء كانوا بالأرحام أو قبلها أو بعدها، كان واضحاً لدى اليهود، وهذا يؤكد صدق ما سبق أن توصلنا إليه في الفصل السادس من أنه لا يوجد أي أساس للتفسير الخطأ لعلم الله بما في الأرحام في أي من كتب التفاسير الإسلامية أو بين أي من المسلمين الأوائل؛ إذ أن التفسير الصحيح الذي أثبتنا صحته في هذا الصدد كان معروفاً ليس فقط بين المسلمين الأوائل بل كان معروفاً كذلك بين المسيحيين ومن قبلهم اليهود!!!.

(*) سورة الأنبياء، بالآية ٣٧.

ومن المفارقات العجيبة في هذا الموضوع أن من اهتم بالكشف عن جنس الجنين علماء غربيون يدين أغلبهم بالدين المسيحي، كما أن المسيحيين كانوا بصفة عامة طرفاً أساسياً في هذا الجدل الدائر حول الإدعاء بكشف الغيب المتمثل في علم الله بما في الأرحام. وشاءت إرادة الله عز وجل أن يكون الدليل القاطع لحسم هذا الإدعاء مستمداً من قصة ميلاد مريم ابنة عمران رضي الله عنها أم المسيح عليه السلام ومن ثم لا ينبغي لهم أن يطعنوا فيه.

العلم بجنس الجنين ... ماذا عساه أن يكون إذن؟

وثمة سؤال آخر وأخير في هذا الموضوع، وقبل أن يغلق ملفه إلى الأبد، يتمثل في ماهية العلم بجنس الجنين. فإذا كان الكشف عن جنس الجنين بالرحم لا يمثل بحال من الأحوال كشفاً للغيب المتمثل في علم الله بما في الأرحام فماذا عساه أن يكون؟

الفروق الجوهرية بين الغيب وعلاماته في علم الله بما في الأرحام:

حقيقة الأمر فإن معرفة جنس الجنين بالرحم لا تمثل سوى إحدى علامات الغيب المتعلق بعلم الله بما في الأرحام. مثلها في ذلك مثل أحد علامات الساعة التي نلاحظها هذه الأيام، كرفع العلم من الأرض وضياع الأمانة وإسداء الأمور إلى غير أهلها، وميلاد الأمة لربتها وغيرها. وكما أن هناك فارقاً كبيراً بين ملاحظة حدوث هذه الأشياء للعلم بقرب قيام الساعة للإسراع بالتوبة وبالعمل الصالح وبين كشف الغيب نفسه المتمثل في تحديد ميعاد قيام الساعة، فإن هناك فارقاً كبيراً أيضاً بين ظهور علامة الغيب المتمثلة في معرفة جنس الجنين بالرحم وبين معرفة الغيب نفسه المتمثل في ماهية الجنين في المستقبل وسيرته

في الحياة الدنيا ومآله في الآخرة. وشتان بين معرفة علامات الغيب وبين الكشف عن الغيب نفسه. وهناك فروق جوهرية، بين الغيب وعلامات الغيب، يمكن ملاحظتها جميعا عند المقارنة ين الغيب المتمثل في علم الله بما في الأرحام وبين علامة الغيب المتمثلة في معرفة جنس الجنين بالرحم. وفيما يلي توضيح هذه الفروق في هذه الحالة:

أولاً ــ يغيب علم الله بما في الأرحام المتمثل في ماهية الإنسان وسيرته في الحياة الدنيا ومآله في الآخرة عن جميع البشر فلا يعرفونه، بينما تمثل معرفة جنس الجنين بالرحم أحد علامات هذا الغيب التي يظهرها الله الحكيم لعباده، وذات مدلول معين مرتبط بهذا الغيب.

ثانيا ــ يخفي الله العليم غيبة المتعلق بعلمه بما في الأرحام لحكم معينة سبق تناولها، بالفصل الثاني، مثل ضمان استمرار الحياة ورحمة من الله الرحيم بعباده ودعماً لمبدأ الأخذ بالأسباب، بينما يظهر الله الحكيم بعض علامات هذا الغيب كمعرفة جنس الجنين بالرحم لبعض الحكم المهمة مثل:

أ – رحمة الله الرحمن الرحيم بعباده بإعطائهم بعض من علمه حول أنفسهم بالقدر الذي يساعدهم على الحياة في صحة أفضل. فكما سبق أن أوضحنا، في هذا الفصل، فإن هناك بعض الأمراض الوراثية التي لا تصيب إلا الذكور فقط مثل أمراض التخلف العقلي والهيموفيليا والأنيميا ونقص التغذية والتي تنتقل إليهم عن طريق الأمهات الحاملات للجينات المصابة دون أن يصبن به. وربما يكون الكشف عن جنس الجنين في هذه المرحلة الجنينية المبكرة بمثابة إنذار مبكر مفاده أن الجنين سوف يصاب بواحد أو

أكـثر مـن هـذه الأمراض، ومن ثم يمكن اتخاذ التدابير الطبية اللازمـة لوقايـته منها في أقرب وقت ممكن، خاصة بعد التقدم العلمـي الهـائل في هذا العصر. كذلك فإن نجاح الجهود العلمية للكشـف عـن جنس الجنين يمكن أن يطمئن كثير من هذه الأسر التـي تضـم زوجـات حاملات لجينات الإصابة من اتخاذ قرار الحمـل والإنجـاب، علـى أساس أنه لو كان الجنين أنثوي فلن يصـاب بـأي من هذه الأمراض في المستقبل، ولو كان الجنين ذكري فيمكن علاجه مبكراً.

ب- قـد يكون الكشف عن جنس الجنين مفيداً في بعض الحالات التي يكـون فيها الكشف المبكر عن جنس العضو الجديد المنتظر في الأسـرة أمراً حيوياً. إذ أن هذا الكشف، وعلى الرغم من احتمال عـدم تحققه، إلا أنه يفيد في بعض الحالات مثل حالة الاضطرار السريع لكتابة الوصية أو حالة الاضطرار لأخذ فكرة مبدئية عن المـيراث المسـتقبلي لكل من أفراد الأسرة على نحو عاجل وفقاً للشريعة الإسلامية، إذ يؤجل توزيع الميراث في هذه الحالة حتى يتم الوضع، إذا كان الوليد المتوقع وارثاً.

ثالثاً ـ لا يمكـن للبشـر البحث عن الغيب المتعلق بعلم الله بما في الأرحام لمعـرفة ماهية الإنسان وما ستكون عليه سيرته في الحياة الدنيا ومآله فـي الآخـرة؛ إذ أن ذلـك خارج عن نطاق العلم البشري ولا يمكن إخضـاع أي مـنه للـتجربة في المعمل. بينما يمكن إخضاع بعض علامـات هذا الغيب للبحث والتجارب في المعمل لكشفها، وذلك على نحـو ما حدث من إنجازات في مجال الكشف عن جنس الجنين وفي مجال الكشف عن الأحوال الصحية للأجنة بالأرحام.

رابعاً ــ يمثل الغيب المتعلق بعلم الله بما في الأرحام لله عز وجل علماً يقينياً مؤكداً ودقيقاً لا تشوبه أي شائبة ولا يعتريه أي نقص في أي جزء ولو بسيط من جزئياته. بينما يمثل علم البشر ببعض علامات هذا الغيب مثل الكشف عن جنس الجنين، علماً ظنياً احتمالياً تعوزه الدقة وينقصه الشمول، وقد يتحقق وقد لا يتحقق، إذ أن هناك حالات كثيرة لا يمكن للعلم كشف جنس الجنين بها حتى الآن.

خامساً ــ إذا أظهر الله علام الغيوب بعضاً من غيبه المتعلق بماهية إنسان معين أو سيرته في الحياة الدنيا أو مآله في الآخرة يكون هذا لبعض عباده الصالحين الذين يرتضيهم خاصة دون بقية البشر، وغالباً ما يكون هؤلاء العباد الصالحون على صلة بهذا الكشف وذلك على نحو ما حدث مع نبي الله زكريا وابنه يحيى عليهما السلام على نحو ما سبق إيضاحه. فقد أخبر الله العليم نبيه زكريا عليه السلام بأن امرأته ستحمل وتلد وأخبره بجنس المولود واسمه وسيرته في الدنيا ومآله في الآخرة. إلا أن إظهار الله سبحانه وتعالى لبعض علامات غيبه يكون للبشر كافة لكي يستفيدوا جميعاً من حكمة هذا الإظهار لأنها تهم البشر جميعاً. ففي هذه الحالة، وبالنسبة للكشف عن جنس الجنين فإن الله الرحيم يظهر هذا الكشف على جميع عباده، طالما أخذوا بالأسباب وطالما اتبعوا القواعد العلمية التي علمهم إياها. إذ يمكن لعلماء الطب والأجنة أن يطبقوا ما منحهم الله العليم من علم على جميع حالات الحمل المتماثلة ليحصلوا على نفس النتائج.

وفي النهاية، أرجو أن أكون بذلك قد بينت، لكـــل ذي عقـــل وبصـــيرة، أن ما يدعيه البعض من كشف للغيب المتعلق بعلم الله بما في الأرحام ما هو إلا هراء ومحض افتراء قصد به الطعن في صحة القرآن الكريم ومن ثم الطعن في صدق الرسالة المحمدية لصرف المسلمين عن إسلامهم، الذي هو عصمة أمرهم. فأعداء الإسلام لا يتركون أي فرصة تتاح لهم لمحاربة الإسلام إلا انتهزوها لكن الله سبحانه وتعالى يدافع عن دينه القيم ويدافع عن الذين آمنوا.

وفي الختام، أرجو أن أكون قد قصدت بهذا المؤلف المتواضع وجـــه الله الكريم. إنه سبحانه وتعالى ربنا ومولانا، وهو جل شأنه الأول والآخر والظاهر والباطن.

تم بحمد الله

قائمة المراجع

أولا : الكتب

١) القرآن الكريم .

٢) ابن رجب الحنبلي . جامع العلوم والحكم . ـ المملكة الأردنية الهاشمية (عمّان) : مكتبة الرسالة ، دون تاريخ .

٣) ابن كثير ، إسماعيل بن كثير القرشي . تفسير القرآن العظيم . ـ القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، دون تاريخ .

٤) خالد محمد خالد . خلفاء الرسول . ـ بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨١ .

٥) عبد الله يوسف علي . تفسير معاني القرآن الكريم . ـ دولة قطر : رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية ، دون تاريخ .

٦) المحلي ، جلال الدين ، والسيوطي ، جلال الدين . تفسير الجلالين ـ القاهرة : دار الشعب ، ١٩٧٠ .

٧) محمد على البار . خلق الإنسان بين الطب والقرآن . ـ ط ٦ . ـ المملكة العربية السعودية (جدة) : الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

٨) مسلم ، أبو الحسين بن الحجاج . الجامع الصحيح . ـ بيروت : دار الآفاق الجديدة ، دون تاريخ .

ثانيا : المقالات

١) جريدة الجمهورية .ـ س ٤٢ ، ع ١٥٢٨٦ ـ ٤ نوفمبر ١٩٩٥ـ القاهرة

٢) جريدة صوت الأزهر . ـ ٢١ شعبان ١٤٢٤ هـ ، ١٧ أكتوبر ٢٠٠٣ م .

فهرس الموضوعات

	رقم الصفحة
مقدمة	١ – ٤
الفصل الأول	
أطوار خلق البشر وجنس الجنين	٧–٤٨
أطوار خلق البشر:	٧
أطوار ما قبل الأرحام.	٧
أطوار ما في الأرحام.	١٠
جنس الجنين.	١٤
خطوات علمية في مجال الكشف عن جنس الجنين:	٢٠
أولاً: الكشف عن جنس الجنين بالرحم.	٢١
أ – بفحص السائل الأمنيوسي.	٢١
ب–باستخدام الموجات فوق الصوتية.	٢١
ثانياً: الكشف عن جنس الجنين خارج الرحم.	٢٥
ملاحظات على الخطوات العلمية للكشف عن جنس الجنين.	٢٨
محاولة التحكم في جنس الجنين.	٣١
ملاحظات على الخطوات العلمية لمحاولة التحكم في جنس الجنين.	٣٣
المفهوم الخاطئ لمعنى علم الله بما في الأرحام	٣٤
الناحية الأولى– انصراف التفسير إلى أن علم الغيب يقصد به معرفة ما إذا كان الجنين بالرحم ذكراً أم أنثى.	٣٥
الناحية الثانية– ذهب التفسير إلى أن أحداً غير الله لا يمكنه معرفة نوع الجنين في الرحم.	٣٥
أسباب التفسير الخاطئ لمعنى علم الله بما في الأرحام.	٣٦
السبب الأول– حب الإنسان الغريزي للبنين.	٣٦

السبب الثاني- ابتعاد كثير من المسلمين عن المنابع الأصلية لدينهم الحنيف. ٣٩
السبب الثالث- سريان الفكر الغربي البراجماتي بين المسلمين. ٤٠
موقف الإسلام من التفسير الخاطئ لعلم الله بما في الأرحام. ٤١
أولاً: الإسلام يرفض تفضيل البنين على البنات. ٤١
ثانياً: الإسلام يحث على التفقه في الدين. ٤٣
ثالثاً: الإسلام يدحض الفكر البراجماتي. ٤٤

الفصل الثاني
المفهوم الحقيقي لعلم الله بما في الأرحام ٥١-٨٨
مفهوم علم ما في الأرحام. ٥٣
حكمة إخفاء الله علم ما في الأرحام: ٥٣
أ - ضمان استمرار حركة الحياة. ٥٣
ب - رحمة الله بعباده. ٥٥
جـ- دعم مبدأ الأخذ بالأسباب. ٥٥
علم الله بما في الأرحام يشتمل على علم كل ما في الأرحام. ٥٦
أولاً- العلم بالإمكانيات الحالية والمستقبلية للأرحام على الإنجاب. ٥٨
أ- العلم بأن الرحم سينجب بالفعل. ٥٨
ب- العلم بأن الرحم لن ينجب بالفعل. ٥٩
ثانياً- العلم بأسرار تخليق الجنين. ٦٣
ثالثاً- العلم بما في أرحام جميع المخلوقات. ٦٤
رابعاً- العلم بجميع أحوال الأجنة بالأرحام في جميع أزمانها. ٦٥
أ - العلم بجميع أحوال الأجنة بالأرحام قبل وجودها بالأرحام. ٦٦
ب- العلم بجميع أحوال الأجنة بالأرحام أثناء وجودها بالأرحام. ٦٩

ج- العلم بجميع أحوال الأجنة بالأرحام بعد
خروجها للحياة الدنيا. ٧٤
د- العلم بجميع أحوال الأجنـــة بالأرحـــام
بالدار الآخرة. ٧٦
الدليل على صحة هذا البعد من العلم مـــن
القرآن الكريم. ٧٩
خامساً- العلم بما في أظهر الرجال: ٨١
أ- العلم بأن الرجل سينجب بالفعل. ٨٤
ب- العلم بأن الرجل لن ينجب بالفعل. ٨٥

الفصل الثالث

معرفة جنس الجنين بالرحم ليست كشفاً لعلم الله ٩١-١٢٦
أولاً- عدم دقة وشمول علم الإنسان لجنس الجنين بالرحم: ٩١
**أ - هل يمكن معرفة جنس الجنين منذ بداية خلقة
في الرحم؟** ٩١
**ب- هل نتائج محاولات الكشف عن جنس الجنـــين
دقيقة دائماً؟** ٩٢
**ج- هل يمكن الكشف عن جنس الجنين في جميـــع
حالات الحمل؟** ٩٣
**د - هل لا تمس محاولات الكشـــف عـــن جـــنس
الجنين سلامته؟** ٩٣
**هـ- هل لنتائج محاولات الكشف عن جنس الجنين
مردود إيجابي على البشرية؟** ٩٤
ثانياً- معرفة جنس الجنين بالرحم لا تقدم شيئاً عن ماهية الإنسان. ٩٥
دليل قاطع من القرآن الكريم يحسم الجدل نهائياً ١٠٥
الله تعالى يحسم دائماً القضايا الهامة بالقرآن الكريم. ١٠٦
**حسم جدل كشف الغيب مـــن خـــلال قصـــة امـــرأة
عمران ووليدتها مريم عليهما السلام.** ١٠٩

- *هل كان علم امرأة عمران بجنس وليدتها علماً بماهيتها؟* ١١٠
- *حتى لو تأكد العلم بجنس الجنين فليس ذلك علما بماهيته.* ١١٢
- *دقة العلم بجنس الجنين بالرحم لا ترقى بحال إلى دقة العلم بجنس الوليد.* ١١٣
- *العلم بجنس الجنين بالرحم ليس إذن كشفاً لعلم الله بما في الأرحام.* ١١٣

والقول الفصل من القرآن الكريم ١١٤

بعد آخر للتفسير يدعم المعنى. ١١٨

العلم بجنس الجنين...ماذا عساه أن يكون إذن؟ ١٢٢

الفروق الجوهرية بين الغيب وعلاماته في علم الله بما في الأرحام. ١٢٢

المراجع ١٢٧

فهرس الموضوعات ١٢٩-١٣٢

رقم الإيداع	٢٠٢٥٠ / ٢٠٠٢
I. S. B. N الترقيم الدولي	٩٧٧-١٧-٠٨٠٦-٦

تم الجمع بمكتب شمس العلمي

٨ ش ابن هانئ الأندلسي- متفرع من ش الطيران

ت: ٤٠٤٤٧٦٣